شعر الطرد
بداياته ورواده وأبرز خصائصه

بقلم

د/ وفاء مصطفى أبو السعود

المدرس بقسم الأدب والنقد

توطئـــة:

شعر الطرد لون من ألوان الرجز الذى أخـذ طـابع التخصـص، وكـان لدى العرب فى عصر ما قبل الإسلام مبثوثاً فى ثنايا القصيد، بيد أن شـعراء الرجز فى عصر بنى أميـة أفردوا للطـرد أرجـوزات مستقلة، وأخـذت لديهـم طـابع الرجـز فـى ذلـك العصـر علـى جهـة العمـوم، فحفلـت بغريـب اللغـة، وعويصها ونافرها.

وكانت أراجيز هؤلاء الرجاز الكبار كالأغلب العجلـى والعجـاج وابنـه رؤبـة مادة لغريب اللغة أولاها علماء اللغة اهتماماً خاصاً؛ لذا حرص الشعراء فى العصور التالية على درس هذه الأراجيز، وتمثل ما فيها من غريب. وكـان حفظ الراوية أو الشاعر للأراجيز أمارة على المهارة فى تلك الألـوان الصعبـة من المعالجات الشعرية وقد حكى عن أبى نواس أنه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزه فضلاً عن القصيدة!!

وفى هذه الدراسة الموجزة ألقى الضوء على هذا اللـون الطريـف مـن فنون الشعر العربى، معرفة به من خلال استعراض نتاج أبرز روّاده، وأبـرع من مهروا فى صناعته فى العصرين الأموى والعباسى الأول.

وجدير بالتنويه أن الطرد عندما تناوله الرجاز اقتصـروا بـه علـى فـن الرجز الذى يأتى من مشطور الرجز فيلتزم فيه الناظم رويا واحداً فى الأبيـات كلها، وقليل منهم عـالج الطـرد فـى القصيـد، لكـن الأعـم الأغلـب كـان مـن الأرجوزات.

وقد تطرقت فى البحث إلى موضوعـات «الطرديـة» ومـا يعـرض لـه الشاعر فيها من وصف الرحلـة وأدوات الصيـد، والحيوانـات أو الطيـور التـى

تستخدم فى الطرد، وكذا وصف الخيل التى تطرد عليها الفرائس إلى غير ذلك مما يتصل بذلك اللون الشعرى الطريف.

نشأة شعر الطرد:

كان العرب فى جاهليتهم أمة متبدية تعيش فى الصحراء عيش الإملاق، ومن طبيعة أهل الوبر إذا أملقوا أن يعتمدوا فى عيشهم على الصيد، وأن يتخذوا من الحيوان مادة حياتهم الأولى، فيقتاتون بلحمه إذا عضهم الجوع، ويصطلون بعظمه إذا مسهم البرد، ويستنيرون بشحمه إذا أظلم عليهم الليل، ويتخذون من أوباره غطاءً وكساءً، ويجعلون من جلوده بساطاً وسقاءً.

وقد هدتهم الفطرة إلى أن يستأنسوا وحشّيه، ويروضوا نافره، وأن يسخروه لمنفعتهم إلى أقصى حدود التسخير، فيسلطون بعضه على بعض ويضربون ضعيفه بقويه، ويقنصون غبيه بذكيه، ويجنون ثمرات ذلك متاعاً لهم ولمن يعولون وإذا كان معظم الصيد عندهم للحاجة فقد كان بعضه للهو والمتعة يشغلون به فراغ حياتهم العريض، ويمتعون بلذاته نفوسهم الظامئة إلى اللذات.

وقد كانت وسائله وأدواته ضيقة ضيق حياة البدوى محدودة بحدود إمكاناته، فهى لا تعدو أن تكون قوساً وسهاماً وصقراً وكلاباً، وكانت الحيوانات المصيدة محدودة أيضاً فهى لا تعدو تلك الطرائد التى تعيش فى الصحراء والطيور التى تغشاها فالطرد أو الشعر الذى يقال فى الصيد عُرف منذ الجاهلية حين كان الشاعر الجاهلى يصف مطاردته بجواده لحمار وحشى أو تتبعه لظبى أو طائر، أو حين يصف صراع ظبى مع حمار وحشى، أو ما أشبه من أنواع الصراع التى تنشب بين الحيوان فى الصحراء القاحلة الجرداء

التى كانت تحيط به. وكان هذا الوصف بطبيعة الحال جزءاً من القصيدة التى يكتبها الشاعر الجاهلى فى أغراض كثيرة من مدح إلى نسيب إلى هجاء إلى فخر إلى غير ذلك من الموضوعات التى كان يخوض فيها(١).

ثم أكرم الله العرب بالإسلام فما لبث قليلاً حتى جعل من سكان الوبر سكان مدر، ومن رعاة الشاة والغنم قادة ممالك وساسة أمم فطعموا من جوع، واكتسوا من عرى وامتلأ فراغ حياتهم بأروع المعانى وأنبل المثل، وأصبحوا أصحاب قضية وحملة رسالة وهداة إنسانية. وإذ بالذى كان يصيد لسد الرمق يجد فيما أفاء الله عليه من غنائم الجهاد وأعطيات بيت المال ما يغنيه عن الصيد ألف مرة.

وإذا بالذى كان يصيد للمتعة وملء الفراغ يجد أن كل لحظة من لحظات حياته قد امتلأت بالجليل الجليل من الأعمال والنبيل النبيل من الغايات والأهداف، وأن العمر أكرم وأجل من أن يضيع فى صيد حيوان أو اقتناص طائر، وذلك على الرغم من أن الله سبحانه أباح الصيد وجعل له فى شرعة الإسلام قواعد وأحكاماً.

فعندما ظهر الإسلام شغل الشعراء أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بموضوعات أخرى فى الرد على المشركين والانتصار للدين الجديد، ولم يهتموا كثيراً بالموضوعات التى كان يخوض فيها الشاعر الجاهلى ومن بينها الطرد.

ثم آل الأمر إلى بنى أمية، وغدا المسلمون فى بسطة من العيش وسعة فى الأرض، وسطوة فى الملك، فنظر الأمويون إلى الأمور نظرة جديدة

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى محمد مصطفى هدارة ص ٤٩٣.

وصيروا الخلافة الإسلامية ملكاً عضوداً، وأغرتهم الحياة بما حفلت به من غنى وثراء، وما امتلأت به من متع وطيبات بأن يسلكوا مسلكاً يختلف قليلاً أو كثيراً عن مسلك السابقين من المسلمين، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام يتفقدها فتلقاه أميرها معاوية بن أبى سفيان فى موكب لم يره من قبل، وراح إليه فى موكب مثله فأنكر عمر رضوان الله عليه ما رآه «وقال له: يا معاوية، تروح فى موكب وتغدو فى مثله!!!. فقال يا أمير المؤمنين: إن العدو منا قريب، وله علينا عيون، فأردت أن يروا للإسلام عزاً»(١).

ثم يصير الخلافة إلى معاوية وفى الفترة الأولى من الحكم الأموى اشتد الصراع بين الأحزاب – كما نعلم – فشغل الشعراء، واستغرق أكثر جهدهم. وحتى فى بيئة الحجاز التى ازدهر فيها فن التغزل – للأسباب التى نعلمها – لم يكن لفن الطرد حظ فيها، لأن هواية الصيد نفسها لم تكن قد أصبحت جزءاً رئيساً فى الحضارة الجديدة التى غزت مظاهرها معالم الحياة العربية فى كل ناحية.

ويشاء الله أن تؤول الخلافة من بعد معاوية إلى ابنه يزيد، ولم يكن يزيد كأبيه يصطنع مظاهر النعمة ليرهب بها عدو الله وعدوه، ويرى أمارات الترف فيذكر ويتعظ ويوازن بين حاله وحال أسلافه الراشدين، فيجد فى هذا الاذكار وهذه الموازنة ما يمنعه من أن ينغمس فى الترف وما يصونه عن مجاوزه ما يحل وما يباح إلى ما لا يحل ولا يباح، وإنما كان إنساناً آخر فيه شئ من البعد عن هذه المعانى مع شدة قرب إلى الحياة وما حفلت به من متاع وزينة.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك الطبرى ج ٤ ص ٢٤٤.

ومتاع الحياة لا حد له، وزينتها لا نهاية لها، والمرء كلما ورد من ذلك مورداً ظمئ إلى مورد آخر، وكلما نال منها مأرباً تطلع إلى مأرب جديد. ومن زينة الحياة ومتاعها تلك الجوارح والضوارى يلهو بها المرء ما شاء أن يلهو ويعبث بها ما شاء أن يعبث ويحول ما خوله الله منها لمصلحته ومعاشه إلى ما لا يتفق مع مصلحته ولا يفضى إلى معاشه.

ولم يكن معاوية جاهلاً بابنه، ولم يكن عقلاء المسلمين غافلين عما يعمل وإنما كانوا مقدرين لما يمكن أن يكون منه. فقد كان «يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب[1] وكان مولعاً بالصيد مبتدعاً فيه، فهو «أول من حمل الفهود على ظهور الخيل»[2].

فلما أراد معاوية أن يبايع لابنه يزيد كتب إلى زياد بن أبيه يستشيره، فبعث زياد إلى عبد الله بن كعب النمرى.... يقول: إن أمير المؤمنين كتب إلى يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد وهو يتخوف نفرة الناس ويرجو موافقتهم، وسلامة شأن الإسلام وضمانه أمر عظيم الخطر، ويزيد صاحب كسل وتهاون مع ما أولع به من الصيد.... فقال له: أنا ألقى يزيد سراً من معاوية وأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى بيعته وأنك تتخوف خلاف الناس عليه وامتناعهم عن بيعته لهنات ينقمونها عليه... ثم قدم على يزيد وذاكره فى ذلك... وكف يزيد عن كثير مما كان يصنع»[3].

فالمجتمع الإسلامى أول عهد بنى أمية لم يكن مرتاحاً للصيد يتخذه

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ١٥.
(٢) أنس الملا المنكلى ص ٧٢.
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٤.

الخلفاء والولاة وسيلة للهو وسبيلاً إلى العبث والمتعة، وكان يجد فى ذلك سبباً وجيهاً يمنعه من مبايعة الخليفة الذى يشهر بذلك، فهو لا يزال ينظر إلى عهد الراشدين نظرة الإكبار والإجلال يشده إليه هدى دينه الذى لم يفتر بعد، وسير أبطاله الذين لم يجف ثراهم. وهو ما برح يرى أن الصيد المباح هو الذى تبعث عليه حاجة أو تدعو إليه مصلحة، أما الصيد للطرب والزينة واللهو والتفاخر فهو أمر جديد يفد على المسلمين مع الخليفة الثانى من خلفاء بنى أمية. كانت خلافة يزيد إذن مع العوامل الأخرى من سياسية واجتماعية واقتصادية سبباً فى أن يفشو الصيد زمن بنى أمية، وأن يغدو وسيلة من وسائل اللهو، ومظهراً من مظاهر الغنى والترف، ولا غرو فالناس زمن بنى أمية ما زالوا قريبى عهد بالبادية، والصيد والطرد من أجمل ما فى حياة البادية.

وكثير من الناس أقصوا فى زمن بنى أمية - بسبب من السياسية والتخوف على الحكم - عن الحياة الجادة وحملوا حملاً على الحياة اللاهية. والصيد باب من أبواب الترف كبير، ومجال للإنفاق لا حد له، فصاحب البيزرة يقول: «إنه لا مؤونة أغلظ من تكلف آلات الصيد لأنها خيل وفهود وكلاب وآلات تحتاج فى كل قليل إلى تجديد، ومن هنا فإنه لا يشغف بالصيد إلا سخى»[1]، فكلب الصيد يحتاج إلى دابة ترافقه وتؤازره، وهما يحتاجان إلى غلام يسوس الدابة ويرعى الكلب ويذكى الطريد، والطريدة تحتاج إلى جارية تصليحها وتطهيها، وهؤلاء - كما قال أبو دلامة للسفاح - عيال لابد لهم من دار تؤويهم وضيعة ينفق من ريعها عليهم[2].

(١) البيزرة أبو عبد الله الحسن ص ٢٠.
(٢) انظر خبر أبى دلامة مع السفاح فى الأغانى ج ١٠ ص ٢٣٦.

وقد كان فى وسع كثير من الناس فى عصر بنى أمية أن يجدوا ذلك كله وأن يجدوا معه الفراغ العريض الذى يمكنهم من اللهو به.

فقد شاع الصيد فى عصر بنى أمية وفشا بين الناس، وأصبحت تمارسه أصناف كثيرة منهم، وأصبحت تعد له الرحلات وتقام الحفلات التى يجتمع فيها أشتات من الناس ويختلط فى حومتها الحابل بالنابل، ويتخلى فيها ذوو الوقار عن وقارهم، وصاحب الجمهرة فى علوم البيزرة يروى لنا خبر رحلة من رحلات الصيد هذه، ويصور فيها شغف الناس بهذا الضرب من اللهو وإقبالهم عليه تصويراً بارعاً.

فاستمع إليه وهو يصف لك حفل صيد اشترك فيه هشام بن عبد الملك حيث يقول: «وذكروا أن هشام بن عبد الملك خرج ذات يوم للقنص، فلما توسط مكان الصيد اختلط الناس بعضهم ببعض وأنكر فى حومة الصيد الأخ أخاه والوالد ولده، والخادم سيده، وجعل الناس يصيدون من كل جانب، كل بما معه مع آلة الصيد، فمنهم من يرمى بالنبل، ومنهم من يتصيد بالجوارح، ومنهم من يصيد بالفهود؛ ومنهم من يتبع المتصيدين لطلب الفرجة قال: وهشام قائم على نشز من الأرض ينظر إلى من يتصيد، فبينا هو قائم ينظر ومعه ثلاثة نفر، وإذا فارس يركض على سرب ظباء ويطرده فلم يزل به إلى أن وصل إلى هشام، فنزل من كان معه إلى السرب، وتبع كل واحد منهم طبياً وتبع هشام ظبياً كذلك»[1].

بل إن هشاماً عرض نفسه ذات يوم للضرب والإهانة فى رحلة من رحلات الصيد هذه، فقد جاء فى (أنس الملا) أن بعض الخلفاء - وهو هشام

(١) الجمهرة فى علوم البيزرة الأسدى ص ٤١.

بن عبد الملك، وكان مولعاً بالصيد – قد انفرد عن صحبه فسابقته قدماه إلى بيت شعر فيه أعرابّى وعنده فرس ارتبطه، وكان من هشام ما أحفظ الأعرابى فتشاجرا فأغلظ هشام القول للأعرابى، فوثب الأعرابى على فرسه وطعن هشاماً برمحه فشجه وأدماه»[1]. فهشام إذن كان صياداً، وكان يشهد حفلات الصيد الصاخبة التى تذهب بوقار الخلافة وأبهة الملك، وكان يشارك عامة الصائدين فى لهوهم وطربهم وتشوتهم، بل إن هشاماً ذهب إلى أبعد من ذلك فرسم فى قصره للصيد رسماً خاصاً به وجعل له فى أعماله وعماله نصيباً، واختار للمنصب الجديد حاذقاً من حذاق هذا الفن وإماماً من أئمته وأسلم إليه ضواريه ليؤد بها إذا جهلت، ويطببها إذا مرضت ويروضها على الصيد كلما آنس بها حاجة إلى الرياضة، ذلك هو العظريف بن قدامة الغسانى وكان يسمى صاحب صيد هشام بن عبد الملك. وهو عالم كبير من علماء البيزرة ومرجع موثوق يرجع إليه فى شؤونها. فقد نقل صاحب كتاب القانون فى علم البيزرة عن الغطريف كما نقل عن أدهم بن محرز فقال: قال الغطريف بن قدامة وكان أستاذاً حاذقاً فى معرفة الضوارى فيما بأمرها»[2].

والغطريف بن قدامة هذا كان مطلعاً – كما يبدو – على آثار الأمم الأخرى فى البيزرة واقفاً على ما جاء فيها فقد نقل عنه صاحب كتاب القانون فى علم البيزرة قوله: «وجدنا فى كتاب خاقان صاحب الترك كذا...[3].

وورث الوليد بن يزيد عن هشام بن عبد الملك ولعه بالضوارى فاصطنع الغطريف بن قدامة من بعده وجعله صاحباً لضواريه حين آلت

(١) أنس الملا المنكلى ص ١٧.
(٢) القانون فى علم البيزرة ص ٦ وما بعدها.
(٣) الطبرى ج ٥ ص ٥٢٠ وما بعدها.

إليه الخلافة.

بل إن ولع الوليد جاوز الحد مما جعل هشاماً نفسه يعمل على الكف من غلوائه فى ممارسة اللهو بالضوارى وغيرها[١].

فقد روى الطبرى أن الوليد اتخذ ندماء فأراد هشام أن يقطعه عنهم، فولاه الحج سنة تسع عشرة ومائة، فحمل معه كلاباً فى صناديق فسقط منها صندوق عن البعير وفيه كلب فأجالوا على المكارى السياط وأوجعوه ضرباً[٢] وكان من الطبيعى ألا يقف أمر اقتناء الضوارى والصيد بها على الخلفاء وحدهم وأن يسرى ذلك إلى الأمراء والأثرياء، فها هو ذا عبد الملك بن بشر بن مروان يقتنى الفهود ويولع بها ولعاً يحمله على أن يستدعى شاعراً فحلا من شعراء الطرد ليصفها له وينشده فيها.

فقد روى عن الأصمعى أنه قال: «أخبرنى بعض الرواة وحدثنى ابن أخت أبى النجم أن عبد الملك بن بشر بن مروان قال لأبى النجم صف لى فهودى هذه فقال:

إنا نزلنا خير منزلات بين الحمير المباركات[٣]

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الصيد وجوارجه وضواريه أصبحت تحتل مكاناً مرموقاً عند القادة السادة، وأن هذه الظاهرة الجديدة من ظواهر الحياة فى القصور لابد لها من أن تجد صداها لدى الشعراء الذين كانوا يلوذون بهذه القصور، ويحيون فى أكناف أربابها وينالون كريم رحبائهم وينعمسون بسخى عطائهم، ويتقربون إليهم بما يحبون وما يرتضون. وأن

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٢٠ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٢٠.
(٣) الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى ج ١ ص ١٦٠.

شعر الطرد نشأ فى ظلال هذه الحياة الجديدة.

وسوف نتحدث فيما يلى عن اثنين من شعراء الطـرد فـى عصـر بنـى أمية، هما: أبو النجم العجلى[١] والشَمر دل الـير بوعـى[٢] وسـندرس مـا وقفنـا عليه من طردياتهما.

ونحن إذا استقرأنا أراجيز أبى النجم وقصـائده وجدنـا أن موضـوعاتها تدور فى جـزء منهـا حـول الفخْر والمـدح والغـزل والهجـاء، غـير أن الطـرد ووصـف مشـاهد الصـحراء، وما فيها من إبل وخيل ونعـام وأسـود وأفـاع تحتـل المقام الأول فى شعره.

ونحن سنعرض فيما يلى لطائفة مما عثرنا عليه مـن طرديـات أبـى النجـم ونبدؤها بطردية همزية عدة أبياتها اثنان وخمسون بيتـاً جعل الشـاعر عشـرة منهـا لذكرة الديار والأطلال، والباقى وهو اثنان وأربعون بيتاً لوصف الظليم وصيده.

افتتح الشاعر طرديته بذكر منزل لأحبابه عفـى عليـه الدهـر فطمسـت معالمه ودرست رباعـه، ولـم يبـق مـن آياتـه السـابقة وعلاماتـه السـالفه سـوى

---

(١) هو الفضل أو المفضل بن قدامة بن عبيد الله، وينتهى نسبه إلى عجل من ربيعـة بـن نزار، وكنيته أبو النجم ولد فى أوائل خلافة معاويـة ونشـأ فـى سـواد الكوفـة فـى واد يقال له: «ذو الجنبين» وهو أحد رجـاز الإسـلام الفحـول وفـى الطبقـة الأولـى منهـم. وكانت وفاة أبى النجم فى أواخـر دولـة بنـى أميـة. انظـر الأغـانى ج ١٠ ص ١٥٠، ١٦٠ وكـذا الشـعر والشـعراء ج ٢ ص ٥٨٤ وكـذا معجـم الشـعراء ص ١٨٠ وكـذا معاهد التنصيص ج ١ ص ٩، ١٢ وكذا لسـان العـرب ج ٧ ص ١٧٠ وكـذا خزانـة الأدب ج ١ ص ١٠٢.

(٢) هو الشمردل بن شريك بن عبد الملك وينتهى نسبه إلى يربوع من تميـم وهـو شـاعر إسلامى من شعراء الدولة الأمويـة عـاصر جريـراً والفرزدق ونحـن لا نعـرف سـنة ولادته، لكن وفاته كانت بعد سنة تسع ومائة والشمردل شاعر جزل الأسلوب مشـرق الديباجة حلو اللفظة دقيق الصورة حسن المعنى يجيد القصيد ويحسن الرجز أنظـر الأغانى ج ٢ ص ١١٢ وكذا المؤتلـف والمختلـف ص ٢٠٥ وكـذا الشـعر والشـعراء ج ٢ ص ٦٨٥ وكذا سمط اللآلئ البكرى ج ١ ص ٥٤٤.

أسافيه السُّفع وشئ من رماده يقول:

لـم يبـق هنـا الدهـر مـن آيانـه[١]
سـوى أثافيـه وأر مدانـه[٢]

غير أن يد الطبيعة الحانية لم تترك هذا المنزل قاعاً صفصفاً كأن لم يغن بالأمس، وإنما مست أطلاله البالية بأناملها الصناع، فإذا بأرضه تهتز وتربو، وإذا بالروض ينور فى مروجه الخضر نوراً مختلف الألوان متعدد الأسماء، فمن زهر أحمر تخال الشمس متألقة فى أكمامه الحمر، ومن ورد أصفر كلل به الروض جبينه:

فالروض قد نور فى حوائه[٣]
مختلف الألوان فى اسمائه
نورا تخال الشمس فى حمرائه
مكللا بالورد من صفرائه

وكان الذباب الغرد الذى تجد فى حسن تغريده روعة صغير القنابر ينتقل على عشب هذا الروض الأخضر ويقف على درمائه الندى ويتجاوب مع المكاء فى روعة الصفير وعذوبة الجرس.

إنه يغرد تغريداً متتابعاً مطرداً أشبه ما يكون بصوت مغن مديد الصوت حلو اللحن عذب الغناء.

يجاوب المكاء من مكائه[٤]
صوت ذباب العشب فى درمائه[٥]

(١) آياى: جمع آى والآى جمع آية وهى العلامة والأثر.
(٢) الأرمداء: لغة فى الرماد وقيل: جمع رماد.
(٣) الحسوة: سواد مع خضرة، أو حمرة مع سواد.
٤) المكاء: بالضم والتشديد ضرب من القنابر له صفير حسن.
(٥) الدرماء: نبت ليس بشجر ولا عشب ينبت على هيئة الكبد.

﴿٧٩٤﴾

يدعـو كـأن العقـب مـن دعائـه[٦]

وهناك فى الفلاة التى كانت تسهل تارة وتحزن أخرى كان يحيا ظليم كأنه مظلة من قصب، وكان يسمع لريشه - وهو يعدو - حفيف كحفيف الريح إذا حنت فى قصباء هذه المظلة.

لقد كان هذا الظليم أبيض الخاصرتين أسود باقى الجسم مما جعله يبدو وكأنه حمل طلى جسده كله بالقطران عدا حقويه اللذين بقيا محتفظين بلونهما الأبيض.

كأنـه بالسـهب أو حزبائـه[٢]
عـرش تحـن الريـح فـى قصبائـه[٣]
كـالآدم المطلـى فـى طلائـه[٤]
صعـدا ومـا حقـواه فـى هنائـه[٥]

لقد كان هذا الظليم يغتذى بالحجارة، فإذا جاع ألقى فى فمه المرو فينسرب إلى جوفه من خلال بلعومه ويموج فوق عصب عنقه الطويل ويتلوى عليه تتلوى الحية الرفطاء حين تضطرب فى جلدها قبل أن يتم انسلاخه:

والمـرو يلقيـه إلـى أمعائـه[٦]
فـى سـرطم هـاد علـى التوائـه[٧]
يمـور فـى الحلـق علـى علبائـه[٨]

(٦) العقب: بفتح وسكون معناه التوالى والملاحقة.
(٢) الشهب: من الأرض البعيد المستوى وجمعه سهوب. والحزباء: المكان الغليظ.
(٣) العرش: المظلة والخيمة.
(٤) الآدم من الإبل: الأبيض.
(٥) الحقو: الخصر. الهناء: القطران
(٦) المرو: حجارة بيض.
(٧) السرطم: البلعوم. هاد: موصل إلى حوصلة الظليم.
(٨) العلباء: عصب العنق.

تمعـــج الحيــــة فـــى غشـــائه(٩)

لقد خشـى هذا الظليم على بيض أنثاه أن يجرفه السيل فاحتفر لـه حظيرة كالنوى تحميه من عوادى المياه الجارفة، أما أنثاه النعامة فقد وضعت بيضاتها الثلاثين فى هذا النوى سطراً مستطيلا بحيث لومد عليه خيط لم تخرج واحدة منه عن الأخرى وجعلت لكل بيضة نصيباً من الحضن لأنها لا تستطيع ضم البيض تحتها دفعة واحدة لكثرته واستطالته(١).

وكانت تنتقل من بيضة إلى أخرى دون أن يعروها الكلال أو تصيبها السآمة إلى أن أدرك البيض وحرجت قفه الفراخ. وقد حرص الظيم أشد الحرص على أن تنشأ الفراخ على عينه وأن تحيا قريبة منه قرب الود من الخيمة.

والبيـــض فـــى نـــؤى مـــن انتثائــــه(٣)
والأم لا تســـأم مــــن ثوائـــــه(٤)
حتـــى يـــدب الـــرأل مـــن خـــر شـــائه(٥)
وبـــات مـــأوى الـــود مـــن بنائـــه(٦)

إن هذا الظليم شديد القوة عظيم السرعة، فهو إذا عدا زعزع صدره حتى ليكاد يزيله عن قوائمه، وحفر بمفرق منسمه ندى التراب ويابسه وكشف بمنقاره ما على التلعات من نبات الدبح والعنصلاء:

---

(٩) التمعج: التلوى.
(١) الحيوان ج ٤ ص ٣٢ وكذا المعانى الكبير لابن قتيبة ص ٣٧٥ وكذا صبح الأعشى ج ٢ ص ٧٠.
(٣) الانتثاء: اتخاذ النؤى.
(٤) لا تسأم من ثوائه: لا تمل من الثواء عليه وحضنه.
(٥) الرأل: طفل النعام الخرشاء: قشر البيض الرقيق.
(٦) بات مأوى الود: أى بات الرأل قريباً من الظليم قرب الود من الخيمة. والود: بالفتح الوتد فى لغة.

يزعــزع الجــؤ حــؤ مــن أنقائـــه(١)

يحفـــر بالمنســـم عـــن فرقائـــه(٢)

عـن يـابس الـترب وعـن ثريائـه(٣)

ومـــره بـــالحد مـــن مجذائـــه(٤)

عـــن ذبـــح التلـــع وعنصلائـــه(٥)

وهذا الظليم إذا لوى أخدعه من ناحية أذنه، وأمال عنقه نحو كاهله وانطلق يعدو خيل إليك أن عشرين جنيا من رعاته قد صاحوا به وزجروه.

إذا لـــوى الأخـــدع مـــن صمعائـــه(٦)

صـاح بـــه عشـــرون مـــن رعائـــه(٧)

كان هذا الظليم يرتع في المراعى مطأطئا عنقه فـي عشبها الندى كـا يطامن الحيىُ من هامته، فما إن أحس بنا حتى قدّ عنقه الطويل وأطل من فوقه برأسه الصغير فأشرف عليه كما يشرف المجداف على الملاح، فلما أثبتنا ضم جناحيه إلى جسده كما يضم البخيل يديه على عطائه، وسما ببصره إلى العلاء، وطلق ما كان لديه من حياء، وانطلق يعدو عدواً سريعا، ويهوى فـى الفيافى هوياً شديداً حتى أصبح لفرط سرعته يتراوح بين السماء والأرض، وحتـى غدت الريح تضل فى الخواء الواقع بين قوائمه.

وكلما ازداد استقبالاً للريح ازدادت سرعته، وقويت مرتـه حتـى فـرى من شدة جر به جلد رجليه وكشف عن عروقه وأنسائه:

---

(١) الجؤجؤ: من موضع الأنقاء وموضع الأنقاء كناية عن القوائم.
(٢) المنسم: طرف خف البعير والنعامة، الغرقاء: الفرق الذى فى المنسم.
(٣) الثرياء: التراب الندى.
(٤) المجذاء: المنقار.
(٥) الدبح والعنصلاء: ضربان من النبات.
(٦) الأخدع: العنق. الصمعاء: موضع أذن الظليم.

﴿٧٩٧﴾

ورفـــع الظليـــم مـــن لوائـــه[١]

إشـــراف مـــردى علـــى صرائـــه[٢]

وضـــم صعـــداً جـــانبى خبائـــه[٣]

ضـــم فتـــى الســـوء علـــى عطائـــه[٤]

وصمحـــت عينـــاه فـــى فرعائـــه[٥]

ونســـى مـــا يذكـــر مـــن حيائـــه[٦]

هـــاو تضـــل الريـــح فـــى خوائـــه[٧]

وجـــد يفـــرى الجلـــد عـــن أنســـائه[٨]

عند ذلك قلت لولدى «شيبان»: بادر إلى لقاء هذا الظليم حتى نطعم القوم من شوائه:

قلـــت لشـــيبان أدن مـــن لقائـــه[٩]

كيمـــا نغـــدى القـــوم مـــن شـــوائه[١٠]

فامتطى «شيبان» صهوة جواد سلس القياد، سهل الانعطاف، معتمد فى العدو يمرق من غباره مروق السهم ويتجرد منه بأسرع مما يتجرد المجنون من كسائه ويتخلص منه بأسرع مما ينفلت الأصلع ممن أراد أن يأخذ

---

(٧) كان العرب يزعمون أن النعام نعم الجنه.
(١) رفع من لوائه: يريد باللواء عنقه ورأسه.
(٢) المردى: خشبة تدفع بها السفينة. والصراء: جمع صار وهو الملاح.
(٣) صعداً: ارتفاعاً إلى الأعلى، وخباؤه جناحاه ومن شأن الظليم إذا عدا أن يستقبل الريح وأن يضم جناحيه إلى جده وأن يلوى عنقه نحو ظهره.
(٤) فتى السوء: البخيل: على عطائه: على ماله.
(٥) صمحت عيناه: سما بصره، قرعاء الظليم: هامته وإنما كانت قرعاء لأنه لا ريش عليها.
(٦) هذا الشطر مثل لأن الرجل إذا استحيا طأطأ رأسه.
(٧) الخواء: ما بين يديه ورجليه.
(٨) الأنساء: جمع نسأ وهو عرق فى الرجل.
(٩) شيبان: ابن الشاعر. انظر الاغانى ج ١٠ ص ١٥٧.
(١٠) كيما مثل كما انظر شواهد سيبويه ج ١ ص ٤٦٠.

بناصيته:

مقتــدر النفــس علــى اعتوائــه(١)
مبــترك يخــرج مــن هبائــه(٢)
تجــرد المجنــون مــن كســائه(٣)
منفلــت الأصلــح مــن نصائــه(٤)

وقد كان ابنى شيبان ثابتاً على صهوة جواده، ملتصقاً بظهـره التصـاق الريش بالفراء، وكان الجواد يسمو مرتقياً وراء هذا الظليم، وشيبان يزجره تارة ويقرعه بسيور اللجام أخرى، حتى إذا حاذى الظليم، طعنه برمحـه طعنـة كبته على وجهه وضرجتـه بدمائـه وألقته على الأرض كما تلقى قطعة من المتاع وراء خباء البيت وقد تم له ذلك قبل أن تدنو الجوزاء من الأفق:

ألصــق مــن ريــش علــى غرائــه
والطــم كالســامى إلــى ارتقائــه(٥)
يقرعــه بــالزجر أو أشــلائه(٦)
فكبــه بــالرمح فــى دمائــه
كــالحفض المصــروع فــى كفائــه(٧)

---

(١) اعتواء الشئ: عطفه.
(٢) مبترك: معتمد فى العدو. الهباء: الغبار.
(٣) شبه سرعة تخلص الجواد من الغبار بسرعة تجرد المجنون من كسائه.
(٤) شبه سرعة انفلات الجواد من الغبار بانفلاتة رجل أصلع من مشاجر أراد أن يأخذ بناصيته، انظر المعانى الكبير لابن قتيبة ص ٨٧.
(٥) الطم: الجواد العتيق، قال صاحب اللسان: يجوز أن يكون سماه طما لطميم عدوه، ويجوز أن يكون شبهه بالبحر كما يقال للفرس بحر وغرب انظر لسان العرب لابن منظور ج ١٥ ص ٢٦٤.
(٦) أشلاء اللجام سيوره.
(٧) الحفض: متاع البيت والبعير المذبوح. كفاء البيت: سترة من أعلى الخباء إلى أسفله تجعل فى مؤخره وجمعه أكفئة.

﴿٧٩٩﴾

قبل دنو الأفق من جوزائه[٨]

وهذه طردية ثانية من طرديات أبى النجم يصف فيها ضوارى أمير من أمراء بنى أمية، فقد روى صاحب الأغانى عن الأصمعى أنه قال: حدثنى ابن أخت أبى النجم أن عبد الملك بن بشر بن مروان قال لأبى النجم: صف لى فهودى هذه فقال:

إنا نزلنا خير منزلات[٢]

وعدة أشطار الطردية خمسة وعشرون شطراً وهى ممحضة كلها لموضوع واحد هو الطرد، ونحن سنعرضها فيما يلى:

افتتح أبو النجم طرديته بذكر المنزل الذى أنزله فيه الأمير الأموى مع فهوده فقال: لقد نزلنا منزلاً فمرع الجنبات، جم الخيرات وأقمنا فيه بين فهود ميمونه النقيبة، مباركة الجنى ننعم بما تصيده من لحوم الوحشى والطير، ونتذوق ما نشتهيه من طيباتها:

إنا نزلنا خير منزلات
بين الحميرات المباركات
فى لحم وحش وحباريات[٣]

وكنا كلما رمنا الصيد ونشدنا لذا ذاته ألفينا ذلك عند هذه الفهود السلسلة الانقياد والتى لا تعصى لمربغ الصيد أمراً ولا تخيب لطالب الطرائد رجاء:

وإن أردنا الصيد ذا اللذات

(٨) الجوزاء: برج فى السماء مصادر هذه الطردية: النوادر، والحيوان، وعيون الأخبار، وأكمل صورها فى المعانى الكبير لابن قتيبة.
(٢) انظر الأغانى ج ١٠ ص ١٦٠ وكذا الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٨٧.
(٣) الحباريات: مفرده حبارى وهو طائر طويل العنق أكبر من الدجاج ينشده الصائدون.

﴿٨٠٠﴾

جـــاء مطيعـــاً بمطاوعـــات[١]

إنها فهود من كل نوع فمنها ما أنسى وحشياً، ومنها ما ضرى داجناً ومنها العالم بالفطرة ومنها المعلم بالترويض، وأياً كان نوعها فهى نجيبه قد انحدرت من أصلاب نجيبه:

علمـــن أو قـــد كـــن عالمـــات[٢]

فهـــى ضـــوار مـــن مضريـــات

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف جمال هذه الضوارى فيقول:

متع ناظريك بجمال هذه الفهود، وعلق بصرك بمحاسنها، فإنها ستطرفك وتستصبيك بعيون كحيلة سال الكحل من آماقها خطوطاً سوداً حتى بلغ أشداقها:

فســـكن الطـــرف بمطرفـــات

تريـــك آمـــاقك مخططـــات[٣]

ســـودا علـــى الأشـــداق ســـائلات

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف صيدها فيقول:

وأنت إذا ما رمت الصيد بهذه الفهود ووضعتها فى دروب الطرائد تريثت وتروت حتى يخيل إليك أن بها خوفاً من الوحش، وأنها لو نازلته لكان هو الغالب ولكانت هى المغلوبة.

عند ذلك تقول لها – والدهشة تملأ نفسك – ما بالك أيتها الفهود! مالى

(١) الضمير فى جاء عائد على الصيد. والمطاوعات كناية عن الفهود التى تطاوع على الصيد.

(٢) من الفهود ما يصرى وحشياً ومنها ما يضرى داجناً والأول عالم بالصيد والثانى يعلمه.

(٣) الموق: مجرى الدمع فى العين انظر العصر الإسلامى شوقى ضيف ص ٣٩٨.

﴿٨٠١﴾

أراك ساهمة لا تتز حزين، واجمة لا تتحركين؟! هل بلغ بك الخوف مبلغاً جعلك تتكصين عن النزول إلى حلبة الطراد؟!

فلا تلبث أن تحييك – بأفعالها لا بأقوالها – حين تسد على الطرائد السبل وتأخذ عليها أفواه الطرق، حتى إذا ما غدت قبالتها شمرت عن ساعد الجد ووثبت عليها وثبة شديدة وأخذتها أخذة واحدة، فإذا بالتيوس ملقاة على الأرض معفرة بالتراب مصجعة هنا وهناك، عند ذلك تعلم بأن الطرائد ليست بسالمة:

حتى إذا كن على المجرات[١]
حيث تظن الوحش آخذت
قال: ألستن بنازلات
فسكر الطرق بمطرقات[٢]
ثم حدون الوحش مقبلات
فواثبتهن مشمرات
فلو ترى التيوس مضطجعات
علمت أن لسن بسالمات

وما هو إلا قليل حتى جئ بالتيوس محمولة على ظهور الدواب، عند ذلك قلت: ألم تكن هذه الطرائد قبل لحظات ترتع وتلهو وتلعب وهى لا تحسب لطائف الموت حساباً؟! فما أقرب الأجل وما أدنى الموت من الحياة؟!

أقول إذ جئن مذبحات
على الإكافين معدلات[٣]
ألم تكن من قبل راتعات؟

(١) المجرات: مجارى المياه، أو بمعنى الطريق والدرب.
(٢) سكر الطرق: سدها. بمطرقات: من شأن الفهود أن تسكن قبل التصدى لطرائدها وأن تطرق.
(٣) الإكافان: مثنى إكاف وهو شبه الرحال.

﴿٨٠٢﴾

مـــا أقـــرب المـــوت مـــن الحيـــاة!

ومن هنا نستطيع أن نسأل سؤالاً وهو ما الفرق بين هذه الأراجيز وبين شعر الصيد الذى عرفناه فى العصور السابقة؟

وللإجابة عن هذا السؤال رأيت أن أتناول الأرجوزة الأولى بكلام يخصها والطردية الثانية بكلام آخر يخصها.

وأول ما يلفتنا فى الأرجوزة الأولى هو طريقة بنائها، فالشاعر افتتح همزتيه بوصف الأطلال ثم انتقل إلى صلب الموضوع أوما يتصل بصلبه وهو وصف الحيوان المصيد الذى هو النعام فنعته نعتاً وافياً هو وأنثاه وصغاره، ثم ختم الأرجوزة بالحديث عن مطاردته وصيده بالرمح.

من هنا يتضح لنا الخطوة التى خطاها أبو النجم فى طريقة إنشاء الطردية العربية وفصلها عن أمها – التى هى القصيدة الجاهلية – حيث استخلص منها فقرة الصيد وجعلها موضوعاً مستقلاً قائماً بذاته من جهة، كما صير مشهد الصيد غاية تقصد لذاتها بعد أن كان فى القصائد الجاهلية وسيلة للإشادة بالمطية، أو التأسى عند النازلة؛ وبذلك يكون قد أضاف إلى أغراض الشعر العربى غرضاً جديداً هو الطرد وآلاته.

غير أن أبا النجم لم يستطيع التخلص الكامل من سلطان القصيدة الجاهلية على غرضه الجديد والدليل على ذلك افتتاحه أرجوزته بذكر الأطلال فظل وفياً للقصيدة الأم، محافظاً على عمود الشعر العربى.

وفيما عدا ذلك فإن الشاعر لم يستطع أن يحدث فى فقرة الصيد القديمة شيئاً يذكر، فالحيوان المصيد عنده هو النعام والظليم ووسيلة الصيد إنما هى الطراد والطعن بالرمح.

والمناظر والمشاهد التى أحاطت بالصيد هى الأخرى صحراوية بدوية مفرقة فى البداوة لا فرق بينها وبين تلك التى كنا نراها عند امرئ القيس وغيره من شعراء الجاهلية بل لعل مشاهده أشد منها بداوة.

ومن الملاحظ أن الحيوان المصيد وأداة الصيد يلقيان من الشاعر أعظم العناية ويفوزان من الأرجوزة بنصيب الأسد.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن التجديد الذى تم على يد أبى النجم فى أرجوزته الأولى إنما تناول الشكل أكثر من تناوله المضمون، فالشكل قد تغير حيث أصبح مشهد الصيد غرضاً مستقلاً لا يشركه معه غيره إلا إذا كان ذا صلة به، أما مضمون فقرة الصيد القديمة فبقى فى الأجوزة الأولى كما كان فى القصيدة الجاهلية سواء بسواء.

وأغلب الظن أن أبا النجم نظم أرجوزته الأولى فى الشطر الأول من حياته الشعرية يوم كان أشد قرباً إلى البداوة وصورها وأكثرها تعلقاً بالصحراء ومناظرها، فلما انتقل إلى دمشق ورياضها وألم بقصور بنى أمية وحضارتها ودعاه أمير من أمراء البيت المالك هو «عبد الملك بن بشر بن مروان» ليصف له فهوده أنشأ طرديته التى تختلف عن أرجوزته الأولى اختلافاً كبيراً وتخطو خطوة» بعيدة فى طريق بناء الطردية العربية وتكوينها.

ومن أول نظرة يلقيها الدارس على الأرجوزة الثانية يجد أن الشاعر خلص الطردية من الوقوف على الأطلال فأصبحت غرضاً مستقلاً تمام الاستقلال.

كما أن الأجوزة اتسمت بوحدة الموضوع التى كانت تفتقدها القصيدة الجاهلية، كما أن أداة الصيد فيها هى الفهد لا الرمح، واتخاذ الفهود وتدجينها

والتصيد بها إنما هو شئ جديد فى الحياة العربية استحدثه خلفاء بنى أمية كما رأينا من قبل، ووصف الصيد بالفهد هو الأخر أمر جديد على الشعر العربى تم على يد أبى النجم.

كما أن الحيوان المصيد فى الأرجوزة هو الظبى لا النعام وحمار الوحشى التى تناولها شعر الصيد القديم. وأن الحيوان الصائد الذى هو الفهد أصبح موضع الاهتمام فى الأرجوزة الجديدة، حيث انصرف الشاعر عن الحيوان المصيد الذى كان موضع عناية الشعراء الجاهليين إلى الحيوان الصائد الذى غدت تدور حوله الطردية الجديدة.

كما خلت الطردية الجديدة من تلك المشاهد الصحراوية الجافة الخشنة وميلها إلى طلاوة الحضارة ولينها. فقل فيها الغريب ومن هنا نستطيع ان نقول: إن أبا النجم العجلى هو الذى خطا بالطردية خطوة واسعة فى طريق استقلالها، وهو الذى وضع اللبنة الأولى فى صرح بنائها.

شعر الصيد والطرد عند الشمردل:

المتتبع لشعر الشمردل يجد فيه ضربين من شعر الصيد أحدهما ذلك اللون الذى رأيناه فى الجاهلية وصدر الإسلام عند امرئ القيس وأبى ذؤيب، وثانيهما ذلك الذى نستطيع أن نطلق عليه بحق اسم شعر الطرد حتى ليصح أن يقال فى الشمردل: إنه أبو هذا الفن من القول فى العربية.

وسنعرض فيما يلى لكلا النوعين وسندرس ما وقع تحت أيدينا منهما وسنبدأ بشعر الصيد لنرى فيه الصورة التقليدية القديمة التى رأيناها من قبل فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام، ثم تنتهى إلى شعر الطرد لنرى فيه صورة هذا الفن الجديد كما بدت عند أبى نواس وابن المعتز وغيرهما من

شعراء الطرد فى العصر العباسي.

وقد وجدنا فى كتاب منتهى الطلب قصيدتين اثنتين جرى فيهما الشاعر على طريقة الشعراء الجاهليين فى جعل الصيد فقرة من فقرات القصيدة واتخاذه وسيلة لوصف الناقة، كما وجدنا فى الأغانى طردية كاملة للشاعر: أما القصيدة الأولى من قصيدتى منتهى الطلب اللتين سلك الشمردل فيهما مسلك الشعراء الجاهليين فإحداهما بائية من بحر المتقارب عدة أبياتها خمسة وخمسون بيتاً جعل الشمردل سبعة وعشرين منها للغزل، وسبعة لوصف الصحراء فى الهاجرة، واثنى عشر لوصف حمار الوحشى وصيده، وباقى القصيدة وهى تسعة أبيات للفخر بشجاعته وجوده. وقد افتتح الشاعر قصيدته بنسيب رقيق الديباجة رشيق اللفظ قال:

طربت وذو الحلم قد يطرب وليس لعهد الصبا مطلب

ثم تابع غزله فى سبعة وعشرين بيتاً، ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الصحراء والهاجرة، فالتفت إلى محبوبته وخاطبها قائلا: رب ليلة حالكة السواد، ضرير النجم كلفتنا سراها وحملتنا على قطعها سعياً إليك، ورب هاجرة لا فحة الأوار، شديدة القيظ تكاد تلتهب الثياب من حرها، وتبدو الحرابى وكأنها تشوى بالنار أو تتقد من الحمى بسبب فيح شمسها وشدة حرها. ورب مفازة رقص آلها فوق الأكمات، ولعب سرابها على النجود والمرتفعات فنراه يقول:

وظلماء جشمتنا سيرها ولم يبد فيها لنا كوكب
وهاجرة صادق حرها تكاد الثياب بها تلهب(١)

---

(١) الهاجرة: نصف النهار عند شدة الحر.

كـــأن الحرابـــى مـــن شمســـها تلـــوح بالنـــار أو تصلـــب[٢]
ورقاصـــة الآل فـــوق الحـــداب يظـــل الســـراب بهـــا تلعـــب[٣]

ثم ترك وصف الصحراء وانتقل إلى الحديث عن ناقته الأمون التى اجتاز عليها هذه الفيافى فقال: لقد كانت تحت رحلى ناقة جمالية الخلق، وثيقة البنية، محبوكة الجسم على مثلها تقطع المفاوز وتجتاز السباسب.

كما وصف هذه الناقة بأنها وخود سريعة الخطو ترمى بقوائمها إلى الأمام وتمشى مشى النعام، فإذا جد الجد وقال القوم أسرعوا استجابت إلى الداعى وأسرعت فى سيرها وجالت أمام النوق من غير أن تزجر أو تضرب بينما لا تسير النوق الأخرى إلا إذا زجرت وضربت فنجده يقول:

وتحـــت قتـــودى زيافـــة خنـــوف إذا صخـــب الجنـــدب[٣]
جماليـــة الخلـــق مضبـــورة علـــى مثلهـــا يقطـــع السبســـب[٤]
وخـــود إذا القـــوم قـــالوا ارفعـــوا ضـــر بـــن وجـــالت فمـــا تضـــرب[٥]

وبعد ان رسم الشمردل هذه الصورة الرائعة لناقته وبين عزيتها على أترابها من النوق نراه ينتقل إلى مشهد الصيد، فنجده يشبه الناقة بحمار وحشى فيقول: :كـأننى شـددت رحلـى علـى متـن حمـار وحشـى وثيـق الخلـق،

(٢) الصالب من الحمى: الحارة وقد صلبت عليه الحمى أى دامت واشتدت.
(٣) الحداب: جمع حدب وهو الغليظ المرتفع من الأرض. الآل: هـو الذى يكـون ضحـى كالماء بين السماء والأرض يرفع الشخوص ويزهاها.
(٣) القتود: جمع قتد وهو الرحل. الزيافة: المختالة الخنوف: الناقة السـريعة النشيطة. إذا صخب الجندب: أى من شدة الحر.
(٤) جمالية: أى وثيقة الخلق كالجمل. المضبورة: من الضبارة وهى تجمع الخلق وشـدته. السبسب: الأرض البعيدة المستوية والمفازة.
(٥) الوخد: ضرب من سير الإبل.

شديد المرة، سريع الخطو، أبيض الحقيبة، ذى صوت مرنان يجعل أتنه الضامرة البطون الطوال الظهور المشاكلة للرماح يجعلها تحاذر روعاته وتخشى غضباته، إنها أتن شديدة المراسى لا تغفر للعير الذى يهمل شأنها تقصيره، فإذا استهان بأمرها شمست عليه ملاهى تعطيه الطاعة ولا هو يقسرها على الولاء له، فنراه يقول:

كأن قتودى وأنساعها تضمنهن وأى أحقب[1]

مرن يحاذر روعارته سماحيج مثل القناشزب[2]

إذا امتنعت بعد إظهارها فلا الطوع تعطى ولا تغضب[3]

لقد رعى هذا العير هو وأتنه حدائق الرياض يوم كانت طرية ندية حافلة بالعشب والكلأ، فلما تصرم الربيع وصوح البنت وجفت مياه العذران وهبت رياح الصيف الشديدة الحرارة تذكر المناهل العذبة التى كانت يرد عليها، والمياه الصافية التى كان ينهل منها، فيمم وجه نحوها وقاد أتنه إلى منابعها، فسرن وراءه سحابة النهار، فلما أقبل الأصيل ودنت الشمس للغروب حدقن فى قرصها وقد غضضن من أبصارهن وضيقن عيونهن وجعلن يسررن النجوى قائلات أتراه يرفق بنا بعد هذا العناء الطويل فيسير سيراً هيناً لينا أم إنه عزم على أن يصل كلال الليل بكلال النهار ليرد بنا الماء فى الغداة؟ فنجده يقول:

---

(١) الأنساع: جمع نسع وهو السير تشد به الرحال: الوأى الأحقب: الحمار الوحشى الأبيض الحقيبة.

(٢) السماحيج: جمع سمحج: الأتان الطويلة الظهر، يشبهها بالقنا.

(٣) الإظهار فى اللغة أن تجعل حاجة غيرك وراء ظهرك تهاونا بها. انظر لسان العرب.

رعى ورعين حديق الرياض إلى أن تجرمت العقرب[١]
وهاجت بوارح ذكرنه مناهل كان بها يشرب[٢]
فظلت إلى الشمس خوص العيون تناجى أيخفض أم يقرب[٣]

لقد حزمت هذه العانة أمرها وبيتته فى ليل وعزمت على أن ترد عيناً من عيون الجمجمان التى كانت تتنازعها طرق وعرة المسالك دقيقة الدروب خافية على السالكين تعرف بآثارها.

فبيتن عينا من الجمجمان تنازعها طرق ينسب[٤]

لقد كمن عند العين الموروودة صائد أضناه سهر الليل وترقب الطرائد، فغدا مهزول الجسم من كثرة الكدح، عارى العظام من شدة الدأب، لا يملك من المال سوى قوس ذات وتر شديد الفتل قوى الجذب، وغير شئ من البنال أعدها لطرائده، فلما وردت العانة على الماء وأشرعت قوائمها فيه حتى سدد القانص نحو العير سهماً من سهامه القاتلة فاعترض سبيله نبات كالقصب وثناه عن العير، عند ذلك جالت العانة وانطلقت تعدو وراء العير الأصهب الذى أثار الترب من شدة عدوه ووقع حوافره على الأرض، فلما وجد القانص أن العانة أفلتت منه أسقط فى يده وكاد يجن من شدة أساه على ما فاته وأوشك يكلب من حسرته على ما فرط وأضاع فنجده يقول:

(١) تجرمت: انقضت وتصرمت، العقرب: برج من بروج السماء يكون فى أواخر الشتاء.
(٢) البوارح: شدة الرياح من الشمال فى الصيف دون الشتاء، والبارح الريح الحارة.
(٣) الخوص: ضيق العيون، الخفض: السير اللين وهو ضد الرفع يقرب: القرب: سير الليل لورد الغد.
(٤) بيت الأمر: فكر فيه ليلاً، تنازعها: من المنازعة بمعنى المجاذبة النيسب: الطريق المستدق كطريق حمر الوحشى إلى موردها والنيسب أيضاً ما وجد من آثار الطريق وليست بجادة بينة انظر المخصص ج ١٢ ص ٤٦.

بهـا سـاهر الليـل عـارى العظـام		عـرى لحمـه أنـه يـدأب[١]
قليـل السـوام سـوى نلـه		وقـوس لهـا وتـر مجـذب[٢]
فلمـا شـرعن رمـى واتقـى		بسـهم ثنـى حـده الأثـاب[٣]
فحصـن فثـار علـى رأسـه		مـن القـاع معتبـط أصهـب[٤]
فكـاد بجسـرة مـا فاتـه		يجـن مـن الوجـد أو يكلـب

وأما القصيدة الثانية فهى رائيه مطلقها.

إن الخليـط أجـد منـك بكـورا		وتـرى المحـاذر بـالفراق جديـراً

وعدة أبياتها سبعة وعشرون، جعل الشاعر تسعة منها للنسيب، وثلاثة لوصف الناقة، وتسعة لوصف الثور الوحشى وصراعه مع كلاب الصائدين وستة للفخر وهى مشاكلة للأولى تمام المشاكلة[٥].

وأما الطردية فهى أرجوزة بائية الروى وقد أوردها أبو الفرج فى أغانية[٦] واصطفى ابن أبى عون منها بعض تشبيهاته[٧]. وعدة أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً تدور كلها حول موضوع واحد هو وصف الصقر والقنص وصيده.

افتتح الشمردل طرديته بقوله:

---

(١) ساهر الليل: كناية عن الصائد.
(٢) السوام: كل ما يرعى من المال. الوتر المجذب: الشديد الجذب والمنازعة.
(٣) الأثأب: نبات كالقصب له رؤوس كرؤوسه وشكير كشكيره.
(٤) حاص حيصة: جال جولة يريد الفرار. عبط الحمار التراب بحوافره: أثاره. الأصهب: هو الذى تعلو شعره حمرة وأصوله سود، وقيل: إن الأصهب: هو الذى يخالط بياضة حمرة. انظر منتهى الطلب من أشعار العرب محمد بن مبارك بن ميمون ص ٢٧٩ وما بعدها.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٨٦، ٢٨٧.
(٦) الأغانى ج ١٣ ص ٣٦١، ٣٦٢.
(٧) التشبيهات لابن أبى عون ص ٤٩.

قـد أغتـدى والصبـح فـى حجابـه		والليـل لـم يـأو إلـى مآبـه[١]
وقـد بـدا أبلـق مـن منجابـه		بتوجـى صـاد فـى شـبابه[٢]
معـاود قـد ذل فـى إصعابـه		قـد خـرق الضفـار مـن جذابـه[٣]
وعـرف الصـوت الـذى يدعـى بـه		ولمعـة الملمـع فـى أثوابـه[٤]
كأنمـا بـالحلق مـن خضابـه		عصفـرة الصبـاغ أو قضـا بـه[٥]
فقلـت للقـانص إذ أتـى بـه		قبـل طلـوع الآل أو سـرابه[٦]
يحـك مـا أبصـر إذ رأى بـه		مـن بطـن ملحـوب إلـى لبابـه[٧]
قصعـاء ترعـى النبـت مـن جنابـه		فـانقض كـالجلمود إذ علابـه[٨]

لقد ابتدأ الشمردل طرديته بقوله لقد غدوت إلى الصيد قبل انبلاج الفجر حيث كان الصبح لا يزال يشف من وراء حجابه، والليل وشيك العودة إلى مآبه، فبدأ الأفق أبلق الضياء قد خالط بياضه سواد وشاب سناه ظلمة.

وكان معه صقر من صقور توج مارس الصيد فى شبابه ومرن عليه فى مقتبل عمره فغدا عادة من عاداته وسجيه من سجاياه ثم وصف الصقر بأنه صقر مروض مذلل يصرفه صقاره كيف يشاء، قد اعتاد الصيد وداوم عليه

(١) المآب: اسم مكان من آب يؤوب.
(٢) الأبلق: الذى فيه سواد وبياض. منجابه، المنجاب: اسم مكان من انجاب بمعنى انكشف. ويقال انجاب عنه الظلام: انشق. التوجى: الصقر المنسوب إلى توج من قرى فارس. وبعض أبيات هذه الأرجوزة وردت فى معجم البلدان (توج).
(٣) المعاود: المواظب والبطل الشجاع لأنه لاعمل معاودة الحرب وممارستها وتعود الشئ وعاده صار له عادة، الصعب: ضد الذلول والمنقاد.
(٤) الإلماع: الإشارة بالثوب ونحوه.
(٥) الخضاب: ما يختضب به من حناء ونحوه العصفر: نبات يصبغ به ينبت فى أرض العرب، والقضاب نبات أيضاً.
(٦) الآل: هو الذى يكون ضحى كالماء بين السماء والأرض يرفع الشخوص ويزهاها وأما السراب فهو الذى يكون نصف النهار لاطئا بالأرض كأن ماء جار.
(٧) ملحوب: موضع. لباب: جبل لبنى خالد.
(٨) الجلود: الصخر.

فهو لا يفتأ يطلبه أشد الطلب متى إنه مزق وثاقه لشدة مجاذبته إياه تحفزاً للصيد وشوقاً للانطلاق وراء الطرائد.

كما أنه صقر ذكى الفؤاد يعرف الصوت الذى يدعى به، ويدرك الإشارة التى يشار بها إليه، ويميز الثوب الذى يلوح له به فيلبى نداء صقاره ويستجيب لإلماعة با زيارة، كما إنه رائع الصورة فخضب العنق حتى لكأن فى حلقه عصفرة الصباغ التى تعصفر بها الأثواب.

ثم حدد وقت مجئ القارض بهذا الصقر فقد جاءه به ضحى قبل طلوع الآل الذى يرفع الشخوص ويزهاها ويقول: فرأيته يرمى ببصره بعيداً ليجلى السهوب والأودية فقلت للصقار: ويحك إما الذى أبصره هذا الجارح حتى قد طرفه فى تلك الفلوات الممتدة بين جبل لباب وماء ملحوب. لقد رأى طائراً من طيور البر يرعى النبت فى ناحية الوادى فانقض عليه انقضاض الصخرة الصلدة حين أطلقه صقاره من عل.

ثم نجد الشاعر يصف لنا حالة الصقر فيقول:

غضبان يوم قينه رمى به	فهن يلقبن من اغتصابه[(١)]
تحت جديد الأرض أو ترابه	من كل شجاج الضحى ضغابه[(٢)]
إذ لا يزال حر به يشقى به	جاد وقد أنشب فى إهابه[(٣)]
مخالباً ينتبن فى إنثابه	مثل مدى الجزار أو حرابه[(٤)]

---

(١) القين: العبد والصانع عامة. الضمير فى (هن) يعود على الطرائد.

(٢) الجديد: المقطوع مشتق من الجد بمعنى القطع. تربة الأرض: ظاهرها. الشجاج: يقال غراب شجاج أى كثير الشحيج صوت الغراب إذا أسن الضغاب: صوت الأرنب وتضورها عند الأخذ.

(٣) الحرب: العدو نشب: لشئ فى الشئ نشوباً: علق فيه الإهاب: الجلد.

(٤) يثبن فى إنشابه: أى ينتبن عند إنثابه. المدى: جمع مدية وهى الشفرة الحراب: جمع مفرده حربة: الالة وهى دون الرمح.

﴿٨١٢﴾ تنتـــزع الفـــؤاد مـــن حجابـــه[١]

فنراه يصف حالة الصقر بأنه يتميز غليظاً ويتلظى غضباً حين رمى به قينه بعد طول احتباس فلقيت الطرائد من اغتصابه لها أشد العنت لا فرق في ذلك بين اللواتي برزن على وجه الأرض أو اللائي اختبأن في الحفر من كل طائر سحاج مسن، وكل أرنب ضغاب شديد التضور عندما يقع عليه الجارح ليفرسه ويصيده.

كما وصفه بأنه صقر ذو مرة يشقى به عدوه أشد الشقاء، وهو حين يجود لخصمه بطعنه من طعناته النافذة ينشب في إهابة مخالب تحكى مدى الجزار مضاء وتشاكل حرابه حدة، فتعلق عند الإنشاب في جسده وتنتزع فؤاده من وراء حجابه.

ثم بين الشاعر عدد الطرائد التي صادها الصقر فنجده يقول:

حـــوى ثمـــانين علـــى حســـابه

مـــن خـــرب وخـــزز يعلـــى بـــه[٢]

لفتيـــة صيدهـــم يدعـــى بـــه[٣]

لقد صاد هذا الصقر صيداً عظيماً، وأوقع بالطرائد إيقاعاً ذريعاً فحاز ثمانين طريدة من ذكور الحبارى والأرانب التي يباهي بأخذها ويفتخر بصيدها، وقدمها لفتية كرام يشاد بصيدهم ويدعى به.

ثم وضح لنا الشاعر ان هؤلاء الفتية كانوا على موعد مع صقرهم لا

(١) حجاب الجوف: ما يحجب بين الفؤاد وسائر البطن.
(٢) الخزب: ذكر الحبارى وجمعه خربان. والخزز: ذكر الأرنب وجمعه خزان واخزة.
(٣) يدعى به: من معاني الدعاء: الرغبة ويكون المعنى: أنه يرغب في صيدهم. ويدعى به: ينتسب إليه ويكنى به ويكون المعنى: إن صيدهم مشهور معروف ينسب إليه ويكنى به. والدعوة: ما يدعى إليه من طعام.

يخلفه أبداً، وكانوا ينتظرون أن يأتى صيده إلى منزلهم الذى تطهى به الطرائد وتشوى.

فما إن وافى الصيد الثمين حتى هب إلى الاحتطاب والطبخ فتى كريم المحتد عظيم السؤدد مشرق الوجه رائع الطلعة إذا دعى أجاب، وإذا هيج لبى ووثب فنجده يقول:

واعدهـــم لمـــنزل بتنابـــه
تطهـى بـه الخربـان أو تشـوى بـه(١)
فقـــام للطبـــخ ولاحتطابـــه(٢)
أروع يهتـــاج إذا هجنابـــه(٣)

فالمتتبع لشعر الشمردل يجد فيه - كما سبق ان قلنا - ضربين من شعر الصيد، أولهما ذلك اللون الذى كنا رأيناه فى الجاهلية وصدر الإسلام عند امرئ القيس وزهير وأبى ذؤيب وأضرابهم، وثانيهما ذلك الذى يطلق عليه - بحق - اسم شعر الطرد.

فإذا نظرنا فى طرديته وجدنا أنفسنا أمام فن من القول جديد كل الجدة، وضع لبناته الأولى أبو النجم وأكمل بناءه الشمردل.

فقد اتخذ الشمردل بحر الرجز وزناً لطردياته وجعلها موحدة الروى. ثم قسم طرديته إلى أربعة أركان متمايزة واضحة المعالم، أولها مقدمة تحدث فيها الشمردل عن التبكير للصيد قبل أن ينحسر الظلام عن الكون وتشرق الأرض بنور ربها.

وثانيها وصف للجارح الصائد الذى هو الصقر على صورة ألم بها من

(١) الخربان: جمع خرب: وهو ذكر الحبارى.
(٢) الاحتطاب: جمع الحطب.
(٣) يهتاج: يثور ويثب. والهيج: الحركة الأروع: الكريم، والحسن الوجه وذو الجهار والفضل والسؤدد.

جوانبها المادية والمعنوية كلها.

وثالثها وصف واف للطراد مع إلمامه بالحيوان المصيد الذى هو الأرنب وبعض الطير، وإشارة خفيفة إلى الإنسان الذى يشرف على القنص، وذكر للمكان الذى وقع فيه الصيد.

ورابعها خاتمة ذكر فيها ثمرات الصيد واجتماع الفتية الاصحاب على طهيه وأكله.

وهو بناء تام لم تصل الطردية فى أحسن أحوالها إلى نموذج أكمل منه وأتم. ومن خلال استعراض مشهد الصيد السابق عند الشاعر ودراسة هذه الطردية نعلم أن الشمردل كان مدركاً تماماً للفرق بين هذين الفنين من القول، واقفاً بوضوح وجلاء على طبيعة كل منهما وغايته، متصوراً للشكل والمضمون الذى يميز الطردية عن مشهد الصيد فالشكل فى الطردية اقتضى خفة البحر وازدواج الروى وإقامة البناء على أسس تختلف عما بنيت عليه القصيدة القديمة التى أتقن الشمردل صنعها كما أتقن صنع الطردية.

والمضمون فى الطردية أقتضى جارحاً صائداً كالصقر حل محل الرماح والنبال والسهام، وحيوانا مصيداً كالأرنب والطير ناب مناب العير والثور والنعام.

يضاف إلى ذلك وحدة الموضوع وتسلسل الأجزاء ومنطقية الحركة والنقلة، ومن هنا نستطيع أن نقول – ونحن مطمئنون – إذا كان أبو النجم هو الرائد الأول لشعر الطرد، حيث عمل على استقلاله ووضع اللبنات الأولى فى أسس بنائه، فإن الشمردل هو الذى أتم البناء وأحكم الصنعة، فهو أبو هذا الفن فى الشعر العربى غير منازع.

ونستطيع أخيراً أن نقرر ونؤكد – مع الدكتور شوقي ضيف، ونحن مطمئنون – أن شعر الطرد وجد زمن بنى أمية ولم يتأخر ظهوره إلى عصر بنى العباسى، ويؤكد ذلك بقوله: «ولعل فى هذا ما يصحح الفكرة التى كانت تزعم أن أبانواس أول من فتح هذا الباب»(١).

ومن هنا نستطيع أيضاً أن نحسم التردد الذى خامر «بروكلمان» فى هذا الشأن حيث بدا له أن «أبانواس هو الذى سبق إلى وضع أسلوب ثابت لهذا المذهب الشعرى، وأنه ربما يكون بعض شعراء بنى أمية قد وصف ملاذ الصيد والطرد، ثم تبعه أبونواس فى ذلك»(٢).

ازدهار شعر الطرد فى القرن الثانى الهجرى

فى أواخر القرن الأول وأوائل الثانى بدأت هواية الصيد تأخذ مكانها فى المجتمع العربى وتنتشر بين الطبقة الأرستقراطية، وفى البيئات المترفة الفنية، فعندما دالت دولة بنى أمية وآل الأمر الى بنى العباس كانت الراية الإسلامية ترفرف على أكثر بقاع الأرض المعمورة ثروة، وكان خراج هذه الأرض العريضة يجبى من هنا وهناك ثم لا يلبث حتى ينصب كله أو جله فى خزائن بنى العباس، وكانت الدنيا تقبل على الناس ضاحكة مستبشرة تحمل إليهم الحضارة وزخرفها.

ثم أقبل الحكام والمحكمون على الترف يكرعون منه ثم لا يرتوون وأوغلوا فى المتع يلتهمونها التهاماً ثم لا يشبعون. وكانت متع الصيد ولذا ذاته فى طليعة ما أقبلوا عليه، فجعوا يقضون فى حفلاته ورحلاته أجمل أيام

(١) تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف ص ٣٩٦.
(٢) تاريخ الأدب العربى بروكلمان ج ٢ ص ٢٧.

العمر، وينفقون على جوارحه وضواريه نفيس المال.

ومن الملاحظ أن هذه البيئات لم تكن تتابع فى هوايتها ما كان موجوداً فى العصر الجاهلى من أنواع الصيد وطرقه، ولكنها كانت متأثرة بالحضارة الجديدة التى شاعت فى هذه الفترة والتى اقتبست فيما اقتبسته من مظاهر الترف المادى عند الأمم الأجنبية هو اية العديد ووسائلها وأدواتها ومما زاد فى هذا الإقبال عظم مكانه العنصر الفارسى فى الدولة الجديدة والفرس – كما نعلم – ذوو شأن فى الصيد عظيم؛ ضروا جوارحه وراضوا ضواريه، وأتقنوا فنونه، وأحكموا آلاته، فلما صار لهم فى المجتمع الجديد مقام الريادة والتوجيه نقلوا إليه كل ما كان لديهم فى هذا المجال. والذى يكشف لنا ذلك ويوضحه ما يذكره ابن النديم من كتب مؤلفة أو مترجمة فى فن الصيد ووسائله، منها كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازيار، وكتاب البزاة للفرس، وكتاب البزاة للترك، وكتاب البزاة للروم وكتاب الجوارح واللعب بها لأبى دلف القاسم بن عيسى(١).

والذى يتضح لنا من هذه الكتب تأثرها بفن الصيد عند الفرس والروم والترك على السواء. وقد عرف بالفعل عن هذه الأمم استخدامها للجوارح من الطير فى الصيد مثل الباز والشاهين والعقاب والصقر، يدربونها على تتبع الحيوان والطير، بالإضافة إلى تدريب الكلاب السلوقية وغيرها للاستعانة بها أيضاً فى صيد أنواع الطير والحيوان.

ولا شك أن تدفق المال على الدولة العباسية وانتشار الغنى فى بيئات كثيرة ساعد على سرعة انتشار هواية الصيد بين الطبقات القادرة، التى تجد

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٣٨.

الوقت فسيحاً لمزاولة أنواع من اللهو البرئ مثل الصيد، إلى جانب فنون اللهو الأخرى المفرقة فى المجون والانحراف.

وبينما نجد قلة من الخلفاء الأمويين تذكر لنا المصادر المختلفة هوايتهم للصيد، نجد معظم الخلفاء العباسيين يقبلون على هذه الهواية لأنها قد أصبحت فى عصرهم جزءاً من مظاهر الحضارة لا تستكمل إلا به، مثلها مثل أنواع الطعام والشراب والقرش التى استحدثت فى الحياة العربية استحداثاً وكانت ولاية السفاح شأن المسلمين سبباً آخر من أسباب ولع الناس بالصيد وإقبالهم عليه، فأبو العباسى كان قبل أن يلى الخلافة يحيا حياة فيها كثير من الفراغ، وفيها رغبة فى الابتعاد عن متناول أيدى ولاة بنى أمية، وكان ذلك يغربه بالصيد ويدفعه إليه.

ومن هنا نشأ السفاح صائداً، فقد صاد وهو غليم صغير[١] وصاد وهو شاب يافع، ثم صاد بعد ذلك وهو خليفة مكتمل[٢].

وكان كثير الولع بالضوارى[٣] شديد اللهج بالصيد[٤] وكان إذا تخلفت ضواريه ولم تصد الصيد الذى يليق بها وبه شكا من ذلك مر الشكوى وخجل أشد الخجل، وجعل يخرج إلى الصيد متفرداً عن عسكره ليس معه إلا خاصته من أمثال خالد بن صفوان ومن يساويه فى المرتبة والمكانة. وكان ينذر النذور لله إذا نجح فى صيده، ويثيب أجزل الثواب الذى يظن أنه كان سبباً فى نجاحه[٥].

---

(١) انظر البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٤٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٤١.
(٣) انس الملا للمنكلى ص ١٤٢.
(٤) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٤١.
(٥) انس الملا للمنكلى ص ١٤٢.

وقد كان السفاح كثير التفاؤل فى الصيد شديد التشاؤم أيضاً، فقد روى أنه خرج يوماً إلى الصيد فرأى غلاماً بدوياً صبيح الوجه فقال له ما اسمك؟ فقال: مسعود، فقال: دلنا على مكان الصيد فدلهم فصادوا ما شاء الله أن يصيدوا، ثم عادوا إلى مخيمهم وأنعم على الأعرابى بما كان فيه غناه[1]. كما روى أنه خرج إلى الصيد يوماً وإذا منادياً ينادى: أيا سعيد مرتين أو ثلاثاً فلما لم يجبه نادى يا شقى فقال السفاح: أول يومنا طيب وآخره ردئ فكان كذلك»[2].

وقد أكثر السفاح من رحلات الصيد الصاخبة التى كانت تجمع جلة أهل بيته وفيهم أعمامه وأخوه المنصور، وكبار رجال دولته وفيهم وزراؤه، وكان يمضى فى ذلك أياماً حافلة بالمتع والمسرات. من هذه الأخبار يبدو لنا تعلق السفاح بالصيد وولعه به على وجه ما كان يتوقع من الخليفة الأول فى الدولة العباسية الجديدة التى ما زالت تحتاج إلى من يرسى دعائمها ويثبت أركانها.

فلما آلت الخلافة إلى المنصور لم يسر فى طريق الملذات ونحوه من أساليب اللهو سيرة أخيه السفاح، ولعل اختلاف شخصيتى الرجلين، وما تعرض له حكم بنى العباس زمن المنصور من انتفاضات وثورات كانا السبب فى أن يسلك المنصور فى حياته كلها مسلك الجد وأن يبتعد ما وسعه الابتعاد عن اللهو بأشكاله كلها ومنها الصيد.

فقد روى الطبرى وابن الأثير أنه «لم ير فى دار المنصور لهو قط

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٣.

ولا شئ يشبه اللهو واللعب والعبث.... [1]».

وكما كان المنصور ينزه نفسه عن اللعب بالجوارح والضواري ولا يجد في وقته متسعاً لذلك كان يأخذ عماله بهذا ويحملهم عليه حملاً ولا يتأخر عن تنحية من يتشاغل بالصيد عن شؤون الرعية.

لكن المنصور على الرغم من ذلك كله لم يستطيع القضاء على ولع الناس بالصيد ولم يتمكن من كفهم عنه، فهم قد ورثوا هذا الولع عن بني أمية وعن أخيه السفاح، وتعلقوا بالصيد ومتعه ولذا ذاته، وأخذوا بما فيه من روعة الترف الباذخ ومظاهر النعمة والخيلاء، وأرسوا قواعده وأخذوا أنفسهم بآدابه، فها هو ذا واحد من ندمائه وشاعر من شعرائه يتعلق بالصيد تعلق المحب بمحبوبه، ويبوح بذلك أمام الخليفة دون أن يتحرج، فقد روى صاحب الجمهرة في علوم البيزرة «أن أبا جعفر المنصور قال لأبي دلامة: كيف حبك للصيد؟ قال كحب المسجون للخلاص من القيد.....»[2]. وقد سأله أبا جعفر المنصور «ما تصنع بلحم الصيد وعندك ما هو أطيب منه؟ فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، غير أني أجد فيه لذه الطرب، وهو الذي أتعبت فيه جوادي وأجهدت فيه مرادي»[3].

بل إن أبا جعفر كان يعتقد أن الصيد سيفشو في أولاده وحفدته، وأنهم سيغرمون به غراماً يأخذ الناس عليهم، فأراد أن يجد لهم معذرة يعتذر عنهم بها، لذا فقد ركب ذات يوم فرساً مشهرة مشمراً عن ذيله وعلى يده باز حتى عبر الجسر بادياً وانكفأ فعبر الآخر راجعاً وتبينه الناس فلما عاد إلى

---

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٥٩ وما بعدها وكذا الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٤٥.
(٢) الجمهرة في علوم البيزرة للأسدي ص ٣٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٠.

مجلسه قال للربيع: ما قال الناس فى ركوب أمير المؤمنين على هذه الحال؟ قال عجبوا منه، قال: إنه كان لأمير المؤمنين فى ذلك مذهب هو أنه سيأتى من أبنائنا من يحب الصيد ويتبذل فيه، فأحببت أن يكون منى ما رأيت، فمتى فعل مثله منا فاعل بعدى، قال الناس: قد ركب المنصور على مثل هذه الصورة[١].

ولم يكذب أبناء المنصور وحفدته وخلفاء بنى العباس ظن أبى جعفر، ولم يتمهلوا فى هذا الأمر الذى توقعه لهم كثيراً ولا قليلاً، فها هو ذا ابنه المهدى ينشأ محباً للصيد، مشغوفاً به حتى إنه لا يكاد يغبه[٢] أو يصير عنه[٣]، وقد أكثر من رحلات الصيد، ورويت له منها طرائف وحوادث.

ومن أخبار رحلات صيد المهدى ما رواه كشاجم من أن المهدى كان فى رحلة صيد ومعه على بن سليمان وأبو دلامة فأثير أمامهم ظبى فرماه المهدى فأنفذه، ورمى على بن سليمان فأصاب كلبا من كلاب الصيد فقتله[٤].

بل إن هناك من يروى «أن المهدى قتل فى رحلة صيد»[٥].

ثم كان الرشيد على ما عرف به من تقى وحزم صاحب ولع بالصيد وتعلق به فقد روى صاحب البيزرة «أن الرشيد كان ذا حظ فى الصيد، وأنه كان يرتاح له ارتياحاً شديداً حتى تحمله الأريحية على ركض فرسه والشد فى إثر الطريدة[٦] وكان إذا نمى إليه خبر متفنن فى الصيد استقدمه إليه

(١) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٤٣.
(٢) يغبه: من أغب القوم: أى أتاهم يوماً وتركهم يوماً.
(٣) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٤٣.
(٤) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٦٦.
(٥) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٣ وكذا الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٨٤.
(٦) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٤٣.

واتخذه لنفسه(١).

وكانت للرشيد رحلات صيد صاخبة يقوم بها ومعه رجال دولته وبعض شعرائه من أمثال أبى نواس، وكان الخليفة يتخلى فى هذه الرحلات عن وقاره ويجد فى نفسه على من يتزمت منهم أو يتخرج(٢).

كما كان الرشيد يخرج إلى الرقة أو غيرها ليصطاد، ثم يمضى فى ذلك الأيام الطوال ذوات العدد(٣).

ولم يقف هذا الولع بالصيد عند الخليفة وحده وإنما تجاوز إلى عماله فلما رفع إليه أمر بعضهم لم يعزله كما فعل المنصور من قبل، وإنما اكتفى بكتاب يوجه إليه(٤).

وقد عرف عن الرشيد فى الآفاق ولعه بالصيد وأدواته فاغتنم (نقفور) ملك الروم إحدى المناسبات الطيبة وأهدى الرشيد اثنى عشر بازياً وأربعة أكلب من كلاب الصيد ليتقرب إليه بها(٥).

ثم آل الأمر من بعد الرشيد إلى ابنه محمد الأمين، فكان - كما يقول صاحب البيزرة - أشد انهماكاً بالصيد وأحرص عليه من كل من تقدمه، فهو ما كاد يلى الخلافة حتى «بعث فى الأمصار يطلب الملهين وجعل يضمهم إليه ويجرى عليهم الأرزاق، ونافس فى ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع

(١) الجمهرة فى علوم البيزرة للأسدى ص ٥٦.
(٢) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٤٣ وكذا المصايد والمطارد لكشاجم ص ٣ وما بعدها.
(٣) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ٤٢٥، ٥٣٩.
(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٤٨٤.
(٥) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ٥١٠ وما بعدها.

وغير ذلك[١]. وشاع ذلك عنه وعرف بين الصائدين، فطفقوا يأتونه بصيدهم، بل إنه بالغ فى تعلقه بالصيد مبالغة جاوزت كل حد، ففى سنة خمس وتسعين ومائة حيث كان الصراع بينه وبين أخيه المأمون فى ذروته وكان مصيره معلقاً على وقفة حازمة يقفها، فوجه قائده على بن عيسى لحرب المأمون فقتل، فلما جاء نعيه «كان فى وقته ذلك على الشط يصيد السمك فقال للذى نعى إليه قائده: ويلك وغنى فإن كوثراً[٢] اصطاد سمكتين وأنا ما صدت شيئاً»[٣].

وقد كان لولع الخلفاء بالصيد وإقبالهم عليه آثار واضحة فى حياة المجتمع العباسى ونظرته إلى الصيد واقتناء جوارحه وضواريه، فالناس منذ خلقوا يدينون بدين ملوكهم، يقلدونهم فيما يفعلون ويتقربون إليهم بفعل ما يحبون ويتبغون عندهم الزلفى فى تزين ما يأتونه.

ثم إن الطامحين رأوا فى إتقان الصيد واصطناعه وسيلة إلى التقرب من الخلفاء، فأقبلوا على هذه الهواية إقبالاً منقطع النظير، وعارضوا نظرة من يزدرون الصيد بنظرة مقابلة، فقرروا أن الصيد من جملة الأدب وأنه آية على مروءة الرجل وعلاقة على طرفه، فقد روى صاحب الجمهرة فى علوم البيزرة: «اعلم أن اللعب بالضوارى من جملة الأدب، وهو مما يقرب إلى الملوك، ومن لم يكن ذا أدب فليس له أن يولع بالضوارى لأن اللعب بها يفضح ناقص المروءة والأدب»[٤].

ثم إن المجتمع جعل ينظر إلى اللعب بالضوارى على أنه من

(١) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٠٢.
(٢) كوثر: اسم خادم الأمين.
(٣) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٦ وما بعدها.
(٤) الجمهرة فى علوم البيزرة للأسدى ص ٤٧.

خصائص الملوك وأصحاب الوجاهة[١]، وكما أثر الخلفاء فى مجتمعهم فقد أثر مجتمعهم فيهم، فهم حين رأوا ارتياح الناس للصيد جعلوا يمتهنون نفوسهم فى سبيله دون تخرج أو توقر، فكان الملك منهم «لا يكبر - إذا أثيرت الطريدة - عن أن يستخف نفسه فى إراغتها ويستحضر[٢] فرسه فى إثرها ويترجل عنها فى المواضع التى لا تقتحم الفرس مثلها»[٣]. بل إنه حكى عن أحد الملوك أنه شوهد وهو يركض خلف كلب وقددنا من ظبى وهو يقول له من الفرح: إيه، فدتك نفسى، وفى ذلك يقول أبو نواس:

مفديـــــــات ومحمياتهـــــــا[٤]

وهم فى هذا يتأسون بعظماء الأكاسرة، فقد حكى عنهم من ذلك ما هو مشهور فى سيرهم[٥].

ولعل مما يلفت النظر فى هذا العصر أن الصيد غدا عند بعضهم غرضاً يقصد لذاته لا لثمراته ونتائجه، وإلا فما بال الرجل المسلم حفيد العباس عم رسول الله وابن الرشيد أحد أوائل الخلفاء، ما باله يقطع عمره فى صيد الخنازير المحرمة على طاعمها ثم يصرع فى سبيل ذلك، فقد روى الصولى عن عبد الله بن المعتز أنه قال: كان سبب موت أبى عيسى بن الرشيد أنه كان مولعاً بصيد الخنازير فوقع عن دابته فلم يسلم دماغه فكان يتخبط فى اليوم مرات إلى أن مات[٦].

على أن من الإنصاف القول بأن المجتمع الإسلامى لم يكن كله يرتاح

(١) أنس الملا للمنكلى ص ٢١.
(٢) استحضر الفرس: أعداه وركضه.
(٣) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٢٤.
(٤) فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب للمرزبان ص ١٣.
(٥) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٢٤.
(٦) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٩٣.

لهذا اللعب بالضوارى والتهالك عليها، وأن أصحاب التقى كانوا ينكرون ذلك على من يفعله، فقد روى صاحب البيزرة أنه مما شهد أبو علقمة المرى عند سوار أو غيره من القضاة وقف فى قبول شهادته، فقال له أبو علقمة: لم وقفت فى إجازة شهادتى؟ قال بلغنى أنك تلعب بالكلاب والصقور، قال: من خبرك، وإنى أخبرك أنى جاد فى الاصطياد بها غيرها زل ولا لاعب، فهل وقف مبلغك على الفرق بين الجد واللعب؟ قال: ما وقف ولا أوقفته وأجاز شهادته(١).

كما أن الناس كانوا يلومون أبناء الملوك على شدة تهالكهم على الصيد فيضطر هؤلاء للدفاع عن أنفسهم واصطناع المعاذير لما يفعلون، فقد روى صاحب البيزرة أيضاً أن بعض أبناء الملوك عذل فى الاستهتار بالصيد والشغف به، وقيل له: إنه هزل وكان أديباً فقال:

ربما أغدو إلى الصيد معى ... فتية هز لهم فى الصيد جد
ألفوا الحرب فلما ظفروا ... فتحاموا أن يعاديهم أحد
واستقام الناس طرا لهم ... فغدوا ليس يرى فيهم أود
وجدوا فى الصيد منها شبها ... فابتغوها فى معاناه الطرد
لترى عادتهم جارية ... لهم باقية لا تفتقد(٢)

لكن هذه المواقف مواقف عزل الصائدين والتوقف فى قبولهم شهادتهم وما شاكلها لم تغير من الأمر شيئاً، فبقى الخلفاء وأودلاهم والولاة وأصحاب الثراء على ولعهم بالصيد وشغفهم به، وكان لابد من أن يجد هذا الجانب من الحياة صداه عند الشعراء وبخاصة أولئك الذين يؤثرون اللهو ويحيون به وله، فقد كانوا يشهدون رحلات الصيد تلك بل يشتركون فيها ولهذا كان من

(١) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٢٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨.

الطبيعى أن يصفوها وينقلوا لنا صورة لما كان يحدث في هذه الرحلات من صيد الحيوان وإنضاجه على النار والإقبال على أكله، ووصف أنواع الطير والحيوانات المدربة التى يستخدمونها فى صيدهم وغير ذلك. وفى طليعة هؤلاء الشعراء أبو نواس إمام شعراء الطرد فى هذا العصر.

شعر الطرد عند أبى نواس

ولعل أبا نواس[1] هو أكبر شعراء الطرديات فى الأدب العربى وأكثرهم تمثيلاً لما بلغته هواية الصيد فى العصر العباسى من رقى وتحضر. فالإنسان يقبل على الصيد إما طلباً للرزق أو تمرساً بالفروسية أو التماساً للمتعة واللذة وقد كان أبو نواس أخا متع لا يرتوى منها ولا يشبع، فأقبل على الصيد لما فيه من لذات وأولع به ولعه بالخمر والجمال فنعته كما نعتهما وقال فيه وفيهما أجمل شعره وغناه وغناهما أروع قوافيه فقد روى أن سليمان بن سهل قال له: ما الذى استجيد من أجناس شعرك؟ فقال: أشعارى فى الخمر لم يقل مثلها، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعرى إن لم

(١) الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح، كان أبوه من أهل دمشق وتزوج امرأة فارسية فولدت له أبا نواس، ثم مات أبوه وهو صغير فكفلته أمه، وانتقلت به إلى البصرة وله يومئذ من العمر سنتان، ثم لقيه والدة بن الحباب فشاقته صورته وأعجبه ذكاؤه، فاستصحبه معه إلى الكوفة، وعمل على تخرجه فى الشعر، فتخلق الفتى بأخلاق أستاذه وكان خليعاً ماجناً. وقد كانت ولادة أبى نواس سنة ستا وثلاثين ومائة وقيل خمس وأربعين وقيل ثمان وأربعين، أما وفاته فقيل إنها كانت سنة خمس وتسعين ومائة وقيل ست وتسعون وقيل سبع وتسعون وقيل ثمان وتسعون وقيل تسع وتسعون وأجمع مؤرخو الأدب على أنه شاعر قوى البديهة رقيق الحاشية لسن بالشعر يقوله فى كل حال وأنه فصيح اللهجة مع حلاوة ومجانية للاستكراه. وقد ترك أبو نواس ديواناً ضخماً طبع فى مصر، انظر فى ترجمته وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٣ وكذا شذرات الذهب ج ١ ص ٣٥٤ وكذا عقد الجمان ج ١٣ ص ٣٥٣ وكذا طبقات الشعراء ص ١٩٣، ٢٠١ وكذا مختار الأغانى ج ٣ ص ٩ وكذا معاهد التنصيص ص ٩٣ وكذا تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٤٦ وكذا الموشح ص ٤٣٤ وما بعدها.

يزاحم غزلي ما قلته في الطرد[١].

وقد ساعده على إدمان الصيد وإتقانه والقول فيه ذلك الفراغ العريض الذى كان يحيا فيه، فلم تكن لأبى نواس مشغلة من أهل أو ولد أوكد على عيال، والصيد يحتاج إلى إنسان ذى فراغ واسع. ومعرفته التامة بالحيوان والمصيد، وقد شهد له بها الجاحظ عند روايته لطائفة من طردياته حيث قال: «وأنا كتبت لك رجزة فى هذا الباب (أى باب الطرد) لأنه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب وذلك موجود فى شعره، وصفات الكلاب مستقصاه فى أراجيزه. هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحذق بالصنعة»[٢].

بالإضافة لاتصاله بالأمين مدة أربت على خمس سنوات، وقد سبق ان بينا ولع الأمين بالصيد ولهوه به وانصرافه له مما كان سبباً فى ضياع ملكه، وكان أبو نواس نديمه وصاحبه فى رحلات صيده، ولولا الأمين ما يتسر للشاعر هذا الذى اتفق له من جوارح الصيد وضواريه، وكلها ذات مؤونة باهظة لا ينهض بها إلا الأغنياء الموسرون. وقد روى صاحب البيزرة ما يشير إلى هذه الناحية فقال: «وكان محمد الأمين أشد انهماكاً فى الصيد وأحرص عليه من كل من تقدمه، وأكثر طرد أبى نواس معمول فى جوارح الأمين وضواريه»[٣]. لهذه الأسباب أقبل أبو نواس على الصيد إقبالاً يمثله لك فى خاتمة إحدى طردياته حيث يقول عن الصيد:

تلك لذاتى وكنت فتى		لم أقل من لذة: حسبى[٤]

---

(١) مختار الأغانى ج ٣ ص ٣٤.
(٢) الحيوان ج ٢ ص ٢٧.
(٣) البيزرة لأبى عبد الله الحسن بن الحسين ص ٤٦.
(٤) ديوان أبى نواس تحقيق الغزالى ص ٦٣٢.

ولهذه الأسباب أيضاً كثر شعر الطرد فى ديوان أبى نواس كثرة تلفت النظر، حقاً إن بعض الرواة قال: «إن أبا نواس نظم فى الطرد تسعاً وعشرين أرجوزة وأربع قصائد، وما زاد على ذلك فمنحول عليه لشهرته الواسعة فى هذا الباب، وقدرته البارعة على وصف الكلاب».

غير أن الذى وجدناه من طردياته المثبتة فى ديوانه والواردة فى كتب الحيوان والأدب تربو على خمس وخمسين طردية وقد ظهر النحل بوضوح فى واحدة منها، لفرق ما بين أسلوبها وأسلوب أبى نواس[١] كما وجدت أخرى منسوبة فى كتاب الحيوان إلى شاعر غيره[٢]، أما الباقيات فليس هناك من دليل ينهض على أنها ليست له، أضف إلى ذلك أن حلها موثق فى أكثر من مصدر قديم معتمد.

وأكثر طرديات أبى نواس تدور حول وصف الكلاب، والسبب فى ذلك أن كلاب الصيد كانت من الأدوات التى شاع استعمالها فى هذه الهواية آنذاك، بينما كان استعمالها قليلاً فى العصر الجاهلى. فالقدماء كانوا يصيدون على الفرس ويقبحون فى الغالب كلاب الصيد إذ يرون أن فى استخدامها تهويناً من بأسهم وتقبيحاً للصيد نفسه، بينما صورت طرديات القرن الثانى الكلب تصويراً قوياً وخلعت عليه أجمل الأوصاف من شجاعة وخفة وجمال شكل وبراعة فى الوثوب على الفريسة واقتناصها. ومن هنا خص الشاعر الكلاب بالنصيب الأوفر من طردياته حيث بلغ ما قاله فيها سبعاً وعشرين طردية، وخص البزاة بسبع منها، أما الباقى فوزعه بين الصقر واليؤبؤ والزرق والديك الهندى والشاهين والفهد والفرس والحمام والعنكبوت والفخ،

(١) المصدر نفسه ص ٦٤٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٦٢.

وقوس البندق، بحيث أصاب جلها طردية واحدة، وأصاب بعضها طرديتان أو ثلاث ونحن سنعرض أبرز الطرديات حسب موضوعاتها عرضاً وافياً بالغرض ليقف القارئ على شعر الطرد عند شاعر يعتبر بحق رائداً من رواد هذا الفن من القول وأول من وسعه ورحب آفاقه(١).

١ـ الكلاب:

احتلت كلاب الصيد فى طرديات الشاعر مكاناً مرموقاً من حيث الكم والكيف، فقد أربى ما قاله فيها على جميع ما قاله فى سائر جوارح الصيد وضواريه وآلاته وجود فيها تجويداً جعل الجاحظ يختار منها اثنتى عشرة طردية ويثبتها فى كتابة الحيوان ويشيد بها وبقائلها ويعزو تجويده فيها إلى معرفته بالكلاب معرفة لم تتوافر للأعراب(٢).

وقد ظهرت معرفته هذه فى استقصاء أوصافها(٣) حيث وصفها وصفاً استوفى كل شئ فيها، تعرض لها من الناحية الجسدية عرضاً لم يغادر فيها صغيرة إلا أبرزها ووضحها، فتناول غرر جباهها وتحجيل زنودها وحسن قدها، وسعة أشداقها، وطول خدودها فنجده يقول فى نعت كلب:

أنعت كلباً أهله من كده ... قد سعدت جدودهم بجده(٤)

ذا غرة محجلا بزنده ... تلذ منه العين حسن قده

تأخير شدقيه وطول خده ... تلقى الظباء عنتاً من شده(٥)

(١) فى الأدب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسه منه محمد صالح الشنطى المجلد الثانى ص ١٣٤.
(٢) الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ٢٧ وما بعدها.
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧.
(٤) يقول: إن أهله يعيشون من كده وقد سعدت حظوظهم فى الحياة تبعاً لسعادة حظه فى الصيد.
(٥) انظر الديوان ص ٦٢٤ وكذا الحيوان ج ٢ ص ٣٥ وكذا البيزرة ص ١٤٩ وكذا مختارات الأغانى لابن منظور ج ٣ ص ٢٤٣.

وألم بعراقيبها الشم، وأيديها المبسوطة، وأكتافها المشرفة، ولباتها المشرقة وألوانها المختلفة، وأفخاذها المرسومة، وخراطيمها المخرطمة، ومآخيرها الملس فنجده يقول:

قد أغتدى والطير فى مثواتها		بأكلب ممرح فى قداتها[١]
شم العراقيب مؤنفاتها		مفروشة الأيدى شرنبثاتها[٢]
سوداً وصفراً وخلنجياتها		مشرفة الأكتاف موفياتها[٣]
غر الوجوه ومحجلاتها		كأن أقماراً على لباتها[٤]
ترى على افخاذها سماتها		قود الخراطيم مخرطماتها[٥]
زل المآخير عملساتها[٦]

ووصف اضطرام أعضائها وضمور أجسادها، وحدة أسنانها وتلهب عيونها فنراه يقول:

لما غدا الثعلب من وجاره		يلتمس الكسب على صغاره[٧]
عارضته فى سنن امتياره		بضرم يمرح فى شواره[٨]
مضطرم القصرى من اضطماره		قد نحت التلويح من أقطاره[٩]

---

(١) مثواتها: اراد بالمثواة الموضع التى تسكن فيه وتقيم. القدات: جمع قدة: سيربقد من جلد غير مدبوغ.
(٢) شم: مرتفعات. العرقوب من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة من يدها الشرنبث: الغليظ الكفين.
(٣) الخلنجي: أصفر خفيف تعلوه غبرة. مشرفة الأكتاف: عاليتها. الموفيات: المشرفات.
(٤) اللبات: جمع لبة وهى موضع القلادة من العنق.
(٥) قود: جمع أقود: وهو الطويل. خرطوم مخرطم: مثل ليل أليل.
(٦) زل: جمع أزل هو الخفيف اللحم. المآخير: جمع مؤخر. انظر الديوان ص ٦٢٨ وكذا الحيوان ج ٢ ص ٣٦ وكذا البيزرة ص ٢٥٢.
(٧) الوجار: الحجر.
(٨) السنن: الطريق. الامتيار: طلب الميرة وهى الطعام. الشوار: الزينة والمراد بها القلائد.
(٩) مضطرم: ملتهب. القصرى: أسفل الأضلاع. التلويح: الضمور أقطاره: جوانبه.

مـن بعــد مــا كــان إلــى أصبــاره		كــأن لحبيــه لــدى افـــتراره[١]
شـــك مســـامير علـــى طـــواره		كــأن خلــف ملتقــى أشــفاره[٢]
جمـر غضى يدمـن فى استعـاره[٣]

وهـو لا يقـف عنـد نعـت شيات الكـلاب الحيـة وإنمـا يجلـو صفاتهـا المعنوية أيضاً، فيكثر من الحديث عن قوة شدها وسـرعة عدوهـا ويتحفنـا فـى هذا المجال بصورة رائعة تجعلنا نشهد اندفاعهـا فـى جريهـا وتغرينـا علـى أن نتتبع بخيالنا خطاها فنراه يقول:

قـد أغتـدى فـى فلـق الإصبـاح		بمطعـم يوجـر فـى سـراح[٤]
غدتـــه أظـــآر مـــن اللقـــاح		فهـــو كميـــش ذرب الســـلاح[٥]
لا يســـأم الدهـــر مـــن الضبـــاح		منجـــد يأشـــر للصيـــاح[٦]
مـا الـبرق فـى ذى عـارض لمـاح		ولا انقضـاض الكوكـب المنصـاح[٧]
ولا انبتـــات الدلـــو بالمتـــاح		ولا انســياب الحـوت بـالمنداح[٨]
حيـن دنـا مـن راحـة السـباح		أجـد فـى السـرعة مـن سـرياح[٩]
يكـــاد عنـــد ثمـــل المـــراح		إذا أرى الخـــاتل للأشـــباح[١٠]
يطير فى الجـو بلا جنـاح[١١]

---

(١) من بعد ما كان إلى أصباره: من بعد ما كان ممتلئاً بديناً.
(٢) الطـوار: الحـد. انظـر الديـوان ص ٦٢٩ وكـذا ديـوان المعـانى للعسـكرى ج ٢ ص ١٣٢.
(٣)
(٤) السراح: الإرسال للصيد.
(٥) الأظآر: جمع ظئر وهى العطوف على ولدها وولد غيرها. واللقـاح: نُوق ذات ألبان غزيرة. الكميش: السريع. الذوب: الحاد.
(٦) الضباح: الصياح. المنجد: المجرب بأشر: ينشط ويمرح، أى أنه ينشط عندمـا يصيح القانص به.
(٧) العارض: السحاب الذى يقرض الأفق المنصاح: المنحط الساقط.
(٨) المتاح: الذى ينتزع الدلو من البئر. المنداح: المراد به البحر الواسع.
(٩) سرياح بالكسر: اسم كلب.
(١٠) الثمل: بالتحريك: السكر ونشوته. المراح بالكسر: النشاط والأشر.
(١١) الأشباح: عنى به الصائد.

كما نراه يصور جولانها عندما يهيج بها كلانها واندفاعها فى إثر طرائدها وما تنشره قوائمها من حصى عند عدوها ويجلو ذلك فى طائفة من التشبيهات البارعة والأخيلة الرائعة فيقول:

أنعت كلباً جال فى رباطه ... جول مصاب فر من أسعاطه[١]

عند طبيب خاف من سياطه ... هجنا به وهاج من نشاطه

كالكوكب الدرى فى انخراطه ... عند تهاوى الشد وانبساطه

يقمم القائد فى حطاطه ... وقد البيداء فى اعتباطه[٢]

لما رأى العلهب فى أقواطه ... سابحه وقر فى التباطه[٣]

كالبرق يذرى المرو بالنقاطه ... مثل قلى طار فى أنفاطه[٤]

وهو يكنى عن شدة عدوها بصورة لا يفتأ يعرضها فى صور مختلفة من الألفاظ هى صورة الكلاب وقد إشتد عدوها، واقترب عند الجرى من الأرض جسدها ومست آذانها الطوال مواطئ أقدامها فجرحتها براثنها وأدمتها وانتشطت منها سيوراً.

فأحد هذه الكلاب ينصاع نحو فريسته كالكوكب الهاوى، ويعدو وراءها عدواً يجعله يخرق أذنيه بشبا أظفاره فيقول:

فانصاع كالكوكب فى انحداره ... لفت المشير موهناً بناره[٥]

حتى إذا أخصف فى إحضاره ... خرق أذنيه شبا أظفاره[٦]

(١) الاسعاط: جمع سعوط وهو الدواء.
(٢) يقمم القائد فى حطاطه: أى يرمى قائده إلى الأرض من شدة اندفاعه فى العدو. القد: القطع، والاعتباط: من اعتبطت الريح وجه الأرض بمعنى نشرته.
(٣) سابحه: راكضه وجلاه الالتباط: العدو.
(٤) يذرى: يثير، المرو: الحجارة الصغيرة. الانفاط: الفقاقيع المتناثرة. الديوان ص ٦٢٥.
(٥) الموهن: نحو من نصف الليل يقول: إنه ينصاع عند إرساله على الطريدة كما ينصاع المنحدر ويمر بأسرع من إشارة المشير ليلاً بناره.
(٦) أخصف: اشتد وأسرع، الإحضار: شدة العدو. انظر الديوان ص ٦٢٥.

ثم نجده فى موضع آخر يعرض صورة للكلب وهو يجوب الفلاة بحثاً عن الطرائد، فيعلو النجاد وينحط إلى الوهاد، متى إذا رأى قطيع الظباء شد عليه، ونحانحو التيس منه؛ ذلك لأن التيس وإن كان أسرع جرياً وأشد مرة وأقوى على الطراد، إلا أنه ما إن يعروه الفزع حتى يلح عليه البول فإذا أراد أن يقذفه اضطر إلى التوقف لضيق المسيل عنده بخلاف الإناث، فإنها تقذفه وهى تجرى لسعة مسيلها والكلب يعرف ذلك، فيتجه عند الطراد إلى الذكور من القطيع ويترك الإناث، وهو يفرق بين النوعين من أول وهلة.

وأبو نواس يصرف ذلك أيضاً فيشير إلى اختيار كلبه للتيس ويصف معركته معه فيقول:

يا رب خرق نازح حديب	غزوته بمخطف ويشوب[(١)]
مضمر الكشحين كاليعسوب	يعلو الأكام فى ذرى الكثيب
وتارة ينحط فى الغيوب	كعوم سفن البحر فى الجنوب[(٢)]
رأى ظباء دعر القلوب	فاعتاقها بالشد ذى اللهيب[(٣)]
كأنه فى شدة الهبوب	تهوى به خافيتا رقوب[(٤)]
معتمداً لتيسها المهيب	فصكه بزوره الرحيب[(٥)]
صكا هوى منه إلى شعوب	فقضقض العجب إلى الظنبوب[(٦)]

(١) الخرق: الأرض الواسعة. النازح: البعيد. الحديب: المرتفع من الأرض. المخطف: الطاوى الحشا.
(٢) الغيوب: المطمئن من الأرض بخلاف الآكام. الجنوب بالفتح ريح تخالف ريح الشمال.
(٣) اللهيب: كناية عن الأسد.
(٤) الخافيتان: مثنى مفرده خافية وهى ريش ما بعد المنكب من الطائر. الرقوب: العقاب.
(٥) معتمداً لتيسها: ناحياً نحو التيس. المهيب: ذو الهيبة.
(٦) شعوب: الموت. القضقضة: صوت كسر العظام. العجب: أصل الذنب. الظنبوب: العظم اليابس من قدام الساق.

وانتهـــى الأرفـــاغ بـــالنيوب يهوى بـه صكـا علـى الجنـوب[١]
كثـــائر أمكـــن مـــن مطلـــوب يـا لـك مـن ذى حيلـة كسـوب[٢]

وقد صور أبو نواس مبلغ عناية القانصين بكلابهم، ومدى ولعهم بها وحرصهم عليها، فهم قد ربوها صغيرة كما يربـون فلذ أكبادهم، واتبغوا لها المراضع كما يبتغونهن لأولادهم، وخصصوا لها البيوت التى تقيها مـن عيون الزائرين.

وإذا خافوا عليها البرد ظللوها ببرودهم وأنـا موها فـى مهودهـم، وإذا خشوا عليها الجوع قاتوها ولو من لحوم أجسادهم، يضمونها إلـى صدورهم كما تضم الأمهات الحانيات أولادها ويقلدونها أجمل الحلى والقلائـد، ويتخذون لها أطرف السيور والمقاود.

ويحفظون أنسابها، ويباهون بأحسابها ويجدون فيها إنساناً ذا مروءة ونجدة، يعرف حق أصحابه فيؤديه، ويدرك ما أنيط به من واجب فينهض بـه، لذلك فهم اتخذوا منها لأنفسهم صاحباً وخليلاً، ووجدوا فيها أخاً ومعيناً، فـانظر إلى الشاعر وهو يصف لك تربية جرو من جراء الكلاب تر أمامك طفلاً مدللاً جاء أبويه على كبر فأحاطاه بالرعاية وكلأه بالعنايـة وحفاه بـالعطف والحنـان وأسرفا فى ذلك ما وسعهما الإسراف فنجده يقول:

قـد نحـت التلويـح مـن أقطـاره مـن بعد مـا كـان إلـى أصبـاره[٣]

---

(١) النهى:الأخذ بمقدم الفم. الأرفاغ: المغابن على الآباط وأصول الفخذين والواحـد رفـغ. الجنوب: جمع جنب.
(٢) كسوب: كثير الكسب. انظر الديوان ص ٦٤٠.
(٣) التلويح: التضمير، أقطاره: نواحيه. الأصبار: جمع صبر وهو ناحيـة الشـئ وحرفـه، يقول: إن هذا الكلب بعد أن كبر جعل أصحابه يضمرونه فنحت التضمير جسده مـن أطرافه كلها وصيره هزيلا بعد أن كان ممتلئا غضا تغذوه ناقة لها عشرة أشـهر مـن حملها.

﴿٨٣٤﴾

غضا كسته الخور من عثاره أيام لا يحبس من عثاره[١]
وهو طلى لم يدن من شغاره في منزل يحجب عن زواره[٢]
يساس فيه طرفي نهاره حتى إذا أحمد في ابتياره[٣]

ثم يصور بعد ذلك الكلب بأنه كائن يشعر بمسئوليته فينهض بها ويدرك ما ينط به من واجب فيؤديه على أكمل وجه مهما كلفه ذلك من جهد وتعب أو بذل في سبيله من عناء، فهو يصعد وراء الوحش إلى العيوق ويحطها إلى الأرض دامية الحلوق ويرى أن ذلك عليه من أوجب الحقوق فنراه يقول:

أنعت كلباً ليس بالمسبوق مطهما يجري على العروق[٤]
جاءت به الأملاك من سلوق يشفي من الطرد جوى المشوق
فالوحش لو مرت على العيوق أنزلها داميةَ الحلوق[٥]
ذاك عليه أوجب الحقوق لكل صياد به مرزوق[٦]

وأبو نواس حين يصف الكلب يصور لنا شدة عناية مولاه به ورعايته له فهو يبيت إلى جانبه، وإن تعرى كساه ببرده حتى لا يصيبه مكروه، وهو يصف الكلب بأنه واسع الشدقين، طويل الخد، وبأنه شديد الجرى حتى إن رجليه لا تمسان الأرض، ولهذا فصيده مضمون، وسرعان ما يملأ الجو دخان الموقد إذ يشتوى عليه الصائدون ما غنمه لهم كلبهم النشيط.

---

(١) كنى بذلك عن صغره حيث كان مدللاً لايؤاخذ على عثراته ولا يحبس بسببها.
(٢) الطلى: الصغير، لم يدن من شغاره: لم يقترب من بلوغه، ذلك لأن الكلب متى سغر أى رفع رجله ليبول فذلك دليل على بلوغه للإلقاح.
(٣) الابتيار: الاختبار انظر الديوان ص ٦٢٩ وكذا الحيوان ج ٢ ص ٢٧ وكذا مختارات البارودى وكذا ديوان المعانى ج ٢ ص ١٣٢.
(٤) المطهم: التام من كل شئ، البارع الجمال.
(٥) العيوق: نجم فى طرف المجرة.
(٦) انظر الديوان ص ٦٢٤.

أما الطرائد التى أطلق أبو نواس عليها كلاب صيده فهى الظباء والثعالب والأرانب، وثور الوحشى، وحماره.

كما نلاحظ ان الظبى نال أكبر اهتمامه حيث كان هو الحيوان المطرود فى خمس عشرة أرجوزة، ثم تلاه الثعلب الذى ورد فى أربع أراجيز، ثم تلاه الأرنب الذى ورد فى أرجوزتين اثنتين، أما باقى الطرديات وعددها ست فجعل ثلاثاً منها للوحوش عامة وواحدة للثور الوحشى وأخرى للحمار الوحشى وثالثة لم يذكر فيها الحيوان المطرود. غير أن أبا نواس لم يعطى الحيوانات المطرودة فى أراجيزه هذه أى اهتمام أو عناية، فهو فى الكثير الغالب يكتفى بإيراد أسمائها مجردة من أى وصف، فإذا زاد على ذلك وصفها بصفة واحدة يقتضيها المقام أو يدعو إليها بلوغ القافية أو اجتلاب الروى، أو إقامة الوزن، فانظر إليه وهو يقول فى إحدى طردياته بعد أن وصف كلبه يقول:

تلقى الظباء عنتاً من طرده　　يشرب كأس شدها بشده[1]

فهو يريد ان مجهودها يتلاشى بفعل مجهوده.

وأغلب الظن ان المرة الواحدة التى أربى فيها على ذلك هى تلك التى خلع فيها على الثور الوحشى ثلاثة نعوت فقال:

يا رب ثور بمكان قاص　　ذى زمع دلاص دلاص[2]

بات يراعى النجم من خصاص　　صبحته بضمر خماص[3]

(١) الديوان ص ٦٢٤.
(٢) الزمع: جمع زمعة وهى شبه أظافر الغنم فى الرسغ، الدلامص والدلاص: البراق.
(٣) الخصاص الخرق الصغير، الضمر الخماص: كناية عن الكلاب، وضمر جمع ضامر والخماص: جمع خميص ومعناهما واحد وهو الهزال من التضمير والتلويح انظر الديوان ص ٦٤١.

وقد سبق ان بينا السبب فى عدم التفات أبى نواس إلى الحيوانات المطرودة وقلة اهتمامه بها هو شدة ولعله بكلاب الصيد، وفرط تعلقه بها، مما ملك عليه لبه وقلبه، وحجب عينيه عما عداها من عناصر الطردية، وصرفه إليها وحدها كل الانصراف.

٢ـ البزاة:

خص أبو نواس البزاة بالنصيب الأوفى أيضاً من طردياته التى قالها فى الجوارح، فقد نال البازى منه سبع أراجيز من أصل ست عشرة، وزعها على الصقر واليؤيؤ والزرق والشاهين.

وقد تناول أبو نواس البازى فى طردياته السبع بالوصف تناولاً شاملاً، وألم بأهم خصائصه إلماماً كاملاً، فنعت صفاته الجسدية، وأبرز مزاياه المعنوية، وصور صراعه مع طرائده، وكشف عن مكانته فى عالم الصيد والصائدين.

فها هو ذا فى إحدى طردياته يرسم صورة واضحة المعالم دقيقة الملامح تناول فيها أبرز سمات البازى الجسدية، وأهم ما يتصل به، فتحدث عن «دستبانه» حديث البازيار الماهر، وأبرز ألوانه، فجلاه للناظرين، وألم بأهم أعضائه وشياته، فنعت تضور شدقية، وتوهج عينيه، وارتفاع هامته، واعوجاج منسره، ثم أتبع ذلك بتشبيه أعجب علماء البلاغة أشد الإعجاب، فاتخذوه شاهداً على التشبيه العزيز النادر الذى لا يتأتى إلا للخاصة من ذوى الأذواق، فنراه يقول:

لما رأيت الليل قد تحسرا   عنى وعن معروف صبح أسفرا

كسوت كفي دستبانا مشعرا فروة سنجاب لؤاما أوبرا[١]
تقي بنان الكف ألا تخصرا وغمرة البازي إذا ما طفرا[٢]
فشمت فيه الكف إلا الخنصرا أعددت للبغثان موتا ممقرا[٣]
أبرش بطفان الجناح أقمرا أرقط ضاحي الدفتين أنمرا[٤]
كأن شدقيه إذا تضورا صدعان من عرعره نفطرا[٥]
كأن عينيه إذا ما أثأرا فصان قدا من عقيق أحمرا[٦]
في هامة علباء تهدي منسرا كعطفة الجيم بكف أعسرا[٧]
يقول من فيها بعقل فكرا لو زادها «عيناً» إلى «فاء» و«را»
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا[٨]

(١) الدستبان: لفظ فارسي وهو القفاز، وهو كيس صغير بقدر أصابع اليد استحدثته الفرس يدخل القانص فيه أصابعه ويجعل البازي فوقه، اللؤام: المتلائم المتفق. الاوبر. الكثير الوبر انظر الديوان ص ٦٥٠ وكذا التشبيهات ص ٤٦ وكذا المصايد والمطارد ص ٦٥.
(٢) تخصر: تبرد. طفر: وثب وفي بعض الروايات «ظفرا» بمعنى غرز ظفره أي ان من شأن القفاز أن يقي كف حامل البازي من أذى براثه إذا وثب مندفعاً وراء الطريدة.
(٣) شمت: أدخلت. الموت الممقر: الموت المر، وكنى بذلك عن البازي نفسه.
(٤) البرش في شعر الرأس: نكت صغار تخالف سائر لونه، البطنان: جمع مفرده بطن وهو الجانب الطويل من الريش. الأقمر: الأبيض، يقول: أن الجوانب الطويلة من ريشه كان فيها برش، أما لونه بعامة فقد كان أبيض. الأرقط: ما كان فيه نقط، والأنمر: ما كان فيه نقط سواد، الضاحي: الواضح الظاهر للشمس والدفتان: الجناحان، والمعنى أن ما برز من جناحيه للشمس كان أرقط وأما باقي جسده فقد كانت فيه نقط سود.
(٥) تضور: صاح من شدة جوعه. صدعان: مثنى صدع. عرعرة شجرة خشبها أصفر تشبه شدق البازي في اللون، والمعنى هو أن شدقيه حين يفتحهما يشبهان قطعتين من خشب عرعرة في صفرتهما.
(٦) أثأر: أحد النظر هذه رواية البيزرة وفي الديوان أثار: بمعنى أدرك ثأره والأولى أوضح يشبه عينيه حين يحدق ويحد النظر بحثاً عن الطريدة بفصين من العقيق الأحمر.
(٧) علباء: غليظة الأعسر: الذي يكتب بشماله ومعنى هذا الشطر والذي يليه: أن منقار البازي الأقنى الأعوج يشبه رأس الجيم قبل أن تتصل بتجويفها.
(٨) إذا كتب بكف رجل أعسر ذلك كما زعموا أن الأعسر يجعلها أكثرا حديدا ؟؟؟؟ انظر الديوان ص ٦٧ وكذا الشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٩٥ وكذا البيزرة ص ١٦٥.

ولم يقتصر أبو نواس فـي نعت البزاة على صفاتها الجسدية، وإنما تجاوز ذلك إلى ابراز مزاياها وشمائلها المعنوية فتحدث عن كرم أروماتها، ومخايل نجابتها، وشدة إلفها لساستها، وقسوة بطشها بطراندها؛ فهـو يرسم لنا صورة لباز معروف الأعراق يشهد له الأرقنيون بصحيح نسبه، أخذ من عشه فرخاً صغيراً لم يدرج ولم يطر، فربى على يدى بازياره، ولو أنه صيد كبيراً من الفلوات لاحتيج إلى خياطة عينيه زمناً ما، ابتغاء تأنيه وتدجينه، والأول أفره على الصيد كما يقول علماء البيزرة.

فإذا رميت به الطرائد من الكراكى وغيرها أصبتها منه بداهية تزرع فى قلوبها الرعب، ويذيقها الأمرين فنجده فى ذلك يقول:

قـد أسـبق القاربـة الجونـا		مـن قبـل تثويـب المنادينـا[١]
بكـل معـروف بأعراقـه		علـى عيـون الأرمنيينـا
ربيـب بيـت، وأنيـس ولـم		يـرب بريـش الأم محضونـا[٢]
لـم ينكـه جـرح حيـاص ولـم		يبـغ لـه بـالتقل تسـكينا[٣]
نرسـل منـه عنـد إطلاقـه		علـى الكراكـى درخمينـا[٤]
داهيـة تخبـط أعجازهـا		خبطـاً يحسـها الأمرينـا[٥]

أما الطرائد التى أطلق الشاعر بازيه عليها فهى الحباريات والكراكى،

(١) القارية: الطيور ودعيت كذلك لسوادها رواية البيزرة، أما فـي الديوان فهى الجارية بدلاً من القارية ولا معنى لها. التثويب: أن يقول المؤذن فى آذان الفجر الصلاة خير من النوم، والمنادون، المؤذنون.

(٢) أى إنه أخذ من العشى فرخاً لم يطر فربى لدى سائسه ولم تربه أمه والأول أفره على الصيد.

(٣) لم ينكه: لم يؤلمه والحياص: الخياط والمعنى أنه لـم يؤخذ من الفلوات كبيراً حيث يعمد إلى خياطة عينيه والتغل عليهما لتبردا وتسكنا وتبقى على ذلك أياماً حتى يأنس فتفتح عيناه.

(٤) الكراكى: جمع كركى وهو طائر كبير من الطيور التى يبتغيها الصائدون. الدرخمين: الداهية.

(٥) يحسها الأمرين: يذيقها الأمرين، الديوان ص ٦٧.

والبغثان. وقد وصف الحباريات والكراكى وأهمل البغثان لقلة شأنها فهى – كما تقول كتب اللغة – طيور غبر الألوان بطيئة الطيران، دون الرخمة فى الحجم(١).

٣- الصقور:

لم يقل أبو نواس فى الصقور إلا ثلاث أراجيز قصيرة لم تزد أبياتها جميعاً على ثلاثة وأربعين بيتاً مع أن الصقر هو الجارح الذى اختصت به العرب وزهت بتضريته على غيرها من الأمم، وأخذ الفرس عنها التصيد به، فقد روى أن كسرى بهرام جور لما بلغه تضريه العرب للصقور على صيد الظبى والأرنب أرسل إلى نصر بن خزيمة صاحب الجزيرة يلتمس منه صقورا.

وقد صارت العرب فى جاهليتها وبعد اسلامها، وهى لا تزال تصيد به حتى اليوم فى الجزيرة العربية لا تكاد تعرف غيره.

وأغلب الظن فى إهمال أبى نواس للصقورهو أنه كانت فيه شعوبية حملته على الولوع بذم العرب وثلبهم والنفرة من كل ما يتصل بهم.

وقد يكون هناك سبب آخر هو أن الملوك والأمراء الذين وصف أبو نواس جوارحهم غالوا فى اقتناء البزاة لندرتها وغلاء ثمنها، تكاثراً وتفاخراً، وأعرضوا عن الصقور لابتذالها رخص أثمانها، مع أنها لا تقل عن البزاة صيداً عند أهل العلم بالجوارح.

ونحن سنستعرض فيما يلى طردية من هذه الطرديات الثلاث لنلم بأبرز ما جاء فيها:

---

(١) انظر الصحاح للجوهرى (بغث) القانون فى علم البيزرة ص ٦٥ وما بعدها.

هذه الطردية أرجوزة لامية الروى مزدوجته، عدة أبياتها ثمانية عشر بيتاً قسمها الشاعر أقساماً ثلاثة: أولها لنعت الصقر فى ثمانية أشطر، وثانيها لوصف صيده لذكران الأرانب فى ستة أشطر، وثالثها خاتمة عرض فيها ثمرات الصيد ونتائجه فنجده يقول:

لا صيد إلا بالصقور اللمح   كل قطامى بعيد المطرح[1]
يحلو حجاجى مقلة لم تجرح   لم تغذه باللبن المضيح[2]
أم ولم يولد بسهل الأبطح   إلا بإشراف الجبال الطمح[3]
أحصى أطراف القدامى وحوح   أبرش ما بين القرا والمذبح[4]

فقد وصف الشاعر الصقر بأنه لا صيد إلا بالصقور الأريبة الذكية من كل قطامى حديد البصر، بعيد المدى، مجلو المقلة صحيحها، مولود بقنن الجبال العاليات لم يؤخذ فرخاً صغيراً إلى البيوت ولم يغذ بحليب الأمهات، وهو قليل ريشى القوادم مضبور الجسم أبرش ما بين الظهر والرقبة.

ثم ينتقل بعد ذلك من وصفه للصقر إلى الحديث عن صيده لذكران الأرانب فيقول:

يلوى بخزان الصحارى الجمح   ينحى لها بعد الطماح الأطمح[5]
يسلكها بنيزك مدرح   ومنسر أقنى كأنف المجدح[6]

(١) اللمح: الذكية، السريعة اللمح. القطامى: الصقر الحديد البصر. بعيد المطرح: البعيد المدى فى طيرانه.
(٢) الحجاجان: عظما الحاجب حيث تستقر العينان. اللبن المضيح: الممزوج بالماء.
(٣) إشراف الجبال الطمح: الجبال العالية المشرفة.
(٤) الأحصى: القليل الريشى، القدامى: ريش مقدم الجناح. الوحوح: المنكمش، الأبرش من شعر الرأس: ما خالط لونه آخر عنده، القرا: الظهر.
(٥) يلوى: يذهب، يقال ألوى فلان بفلان: أى ذهبا به الجمح: السريعة. الطماح: من طمح بصره إلى الشئ أى ارتفع أوهى بمضى الشرة، وأى المعينين أخذت استقام الشطر.
(٦) يسلكها: يطعنها النيزك: الرمح القصير المذرح: المسموم، المجدح: ما يحرك به السويق كالملعقة.

وهـــى رواق بالبســـاط الأفيـــح   ومتيحـــات للقـــاء متيـــح[١]

وصف الصقر بأنه صيود يردى أرانب الصحارى السريعة الجامحة فينعض عليها بعد أن يجلوها ببصره الطامح البعيد ويطعنها برمح مسموم من براثنه الحادة، ويشكها بمنقار أقنى كأنف المجدح بينما تكون لائذة بالقرار آخذة طريقها صعداً فى الجبال كأنها تبتغى أن ترمى السماء بسلم فتتيح من حيث لا تدرى لصائدها النشيط أن يلحق بها.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن جنى صيده فيقول:

فاصطـــاد قبـــل التعـــب المـــبرح   وقبـــل أوب العـــازب المـــروح[٢]
خمســـين مثـــل العـــنز المشـــدح   مـــا بيـــن مذبـــوح ومـــا لـــم يذبـــح[٣]

فهو يصدره إنه اصطاد قبل أن يدركه الإعياء الشديد، وقبل أن يقبل الليل بظلامه خمسين أرنباً كالعنزات السمان ما بين مذبوح وغير مذبوح.

٤ـ اليؤيــؤ:

لأبى نواس فى اليؤيؤ طرديتان اثنتان ألم يوصفه فيهما إلماماً لا يميزه من سواه ولا يجلو صورته للقارئ.

نذكر منهما طرديته الهائية التى عدة شطورها ستة عشر شطراً، التى استهلها الشاعر بذكر غدوه إلى الصيد مبكراً قبل أن ينفصل الصبح عن الليل تمام الانفصال حيث يكون آثار ظلماته لا تزال تلوح فوق أنوار الصباح حيث يقول:

(١) البساط الافيح: كناية عن السماء متيحات: مهيئات. الديوان ص ٦٤٨.
(٢) المبرح: الشديد، العازب المروح: الذاهب السائر فى العشى إلى مأربه.
(٣) المشدح: السمين الديوان ص ٦٥٣.

﴿٨٤٢﴾

قد أغتدى والصبح في دجاه كطرة البرد علامتاه[١]

ثم انتقل إلى وصف اليؤيؤ فقال:

بيؤيؤ يعجب من رآه ما في اليآئي يؤيؤ شرواه[٢]
من شفعة طر بها خداه أزرق لا تكذبه عيناه[٣]
فلو يرى القانص ما يراه فداه بالأم، وقد فداه[٤]

وضعه بأنه يؤيؤ رائع المجتلى يعجب من رآه، فريد الحسن ما في اليآبى له ضريب، أسفع الخد أزرق الجسم صادق العين، لا تخطئ نظرته يرمي ببصره بعيداً فيرى ما لا يراه القانص ولو أن صاحبه أبصر ما يبصره لأكبره وأعظمه وفداه بأمه، وقد فعل.

ثم انتقل الشاعر من ذلك إلى الحديث عن ضراوة هذا اليؤيؤ وفتكه بطرائده فيقول:

من بعد ما يذهب حملاقاه لا يوئل المكاء منكباه[٥]
ولا جناحان تكنفاه منه إذا طار وقد تلاه[٦]
دون انتزاع السحر من حشاه لو أكثر التسبيح ما نجاه[٧]

---

(١) طرة البرد: كفته وهي جانبه الذي لا هدب له. والبرد: الثوب. انظر الديوان ص ٦٥٤. وكذا المصايد والمطارد ص ٩٣.
(٢) شرواه: مثيله.
(٣) السفعة: السواد، وطربها خداه: بدت على خديه وطرت عليهما كما يطر شارب الظلام.
(٤) ان من شأن الجوارح أن ترقى ببصرها إلى مدى أبعد من المدى الذي يصل إليه بصر الإنسان وإن من الطرائد ما لا يراه القانص فكثيراً ما يرسلها على ما رأت لاعلى ما رأى انظر الديوان ص ٦٥٤.
(٥) الحملاقان: مثنى حملاق: وهو باطن الجفن. ويذهب حملاقاه: يرمي ببصره بعيداً أو يثبت طريدته.
(٦) يوئل: ينجي ويعصم، المكاء: بضم فتشديد: طائر في شكل القنبرة حسن الصوت يسكن الريف تكنفاه: أحاطا به.
(٧) السحر: الرئة.

فهو يصفه بأنه متى أثبت المكاء بنظره عدا ملك يديه وفى قبضته، فلا ينجيه منه منكباه، ولا ينقذه من بأسه جناحاه، ولا يعصمه منه تسبيح الله، ذلك بأنه متى طار وراءه لم يرجع عنه إلا إذا أذاقه كأس حمامه، وانتزع رئتيه من بين أحشائه.

ثم يختم الطردية بحمد الله الذى حباه هذا اليؤيؤ، والثناء عليه لما ألهم هذا الجارح من الهدى.

ذاك الــــذى خولنــــاه اللــــه تبـــارك اللـــه الـــذى هـــداه[1]

٥- الديك الهندى

لم يكتف أبو نواس بوصف ما تعارف عليه الناس من جوارح الصيد وإنما تجاوز ذلك إلى وصف الديك الهندى ومناقرته لأقرانه من الديكة ونظم فى ذلك أرجوزتين.

ومناقرة الديك وهراش الكلاب ضربان من اللهو البشع يلهو بها الإنسان عندما تفرغ حياته من كل معنى، وتخلو من كل مكرمة.

والأرجوزتان داليتان رويهما واحد وهو الدال، ومطلعهما متفق وهو قوله:

أنعـــت ديكـــاً مـــن ديـــوك الهنـــد[2]

وقد وصف الشاعر فيهما الديك الهندى وصفاً مبالغاً فيه على الرغم مما اتسم به من دقة الملاحظة واستيفاء الموصوف من جوانبه كلها، فتحدث عن شكله الذى يبز شكل الطاووس، وشجاعته التى تفوق شجاعة الاسود وصياحه الذى يحكى هزيم الرعد وبذل الطاعة له من قبل الدجاج فيقول:

(١) خولناه: أعطانا إياه، انظر الديوان ص ٦٥٤.
(٢) الديوان ص ٦٥٩ ومختارات البارودى ج ٤ ص ٢٥.

﴿٨٤٤﴾

أنعت ديكاً من ديوك الهند أحسن من طاووس قصر المهدى
أشجع من عادى عرين الأسد ترى الدجاج حوله كالجند[1]

٦- الفخ

طرديات أبى نواس جميعها دارت حول أدوات الصيد الحية من الجوارح والضوارى، ولكن هناك طردية تناول فيها الشاعر أداة من أدوات القنص غير الحية وهى «الفخ».

ومن الملاحظ أنها أول طردية يعدل فيها الشاعر عن الرجز إلى القصيد فنظمها على بحر السريع وعدة أبيات هذه الطردية تسعة استهلها الشاعر بما ينبغى أن يكون خاتمة لها فكشف عن أن الفخ أخفق فى بلوغ الفرض الذى وضع من أجله، وأن العصفور نجا من الشرك الذى نصب له فقال:

قد كاد هذا الفخ أن يعقرا وانحرف العصفور أن ينقرا

فهو يقول قد كاد هذا الفخ أن يعقر طريدته لولا أن العصفور تحرف عنه وأبى أن ينقر الحب الذى نثر فوقه.

ثم أخذ الشاعر يحكى قصة أخفاق الفخ ونجاة العصفور من الوقوع بين فكيه فقال:

غيبت فى الترب عليه له بالمستوى خشية أن ينفرا[2]
لما رأى الترب، رأى جثوة ماثلة الشخصى فما استنكرا[3]
حتى إذا أشرفها موفياً وعاين الحب لها مظهر

(١) الديوان ص ٦٥٩.
(٢) بالمستوى: بما استوى من الأرض.
(٣) الحثوة: بتثليث الجيم الحجارة المجموعة.

فهو يصور كيف غيب فى الترب عن العصفور شر كانصبه له، وسواه بالأرض حتى لا يثير شكوكه، ويوقظ مخاوفه، فلما رأى موضعه من الثرى وجد فوقه جثوة من الحجارة وضعها لإخفاء معالمه، فلم يستنكر ما رأى، وأشرف على موضع الفخ من عل، ووافى مكانه وجعل ينظر إلى الحب الذى انتثر فوقه وهم بالسقوط عليه والتقاطه. عند ذلك برز له من نفسه زاجر ما كنت أحسب أنه يبرز له، وحذره مغبة ما هو مقدم عليه، فأعمل الفكر فى ذلك، ومن يعمل فكره فى أموره فإن الله يقيه المهالك فنراه يقول:

خاطبه من نفسه زاجر قد كنت لا أرهب أن يزجرا
فأعمل الفكر قليلاً ولا يقتله الرحمن ما فكرا[1]

ثم صور الشاعر الحرب التى نشبت فى نفس العصفور بين الإحجام والإقدام فقال:

فاحتربت (لا) و(نعم) ساعة ثم انجلى جند نعم مدبراً
فضم كشحيه إلى جؤجؤ كان إذا استنجده شمرا[2]

وقد بين الشاعران جنود هذه الحرب كانت (لا) و(نعم) فكان الحذر ينادى العصفور بلا وكان الطمع يلح عليه بنعم، وما هو إلا قليل حتى دحرت (نعم) فلاذت بالقرار، وانتصرت (لا) فضم العصفور كشحيه إلى صدره واستنجد بجناحيه اللذين طالما أنجداه فى الملمات وصفق وطار.

ثم ختم الشاعر طرديته بقوله:

فلم يرعنى غير تدويمه آمن ما كنت له مضمرا[3]

---

(١) الديوان ص ٦٦١.
(٢) كشحيه: جناحيه، الجؤجؤ: صدر الطائر، شمر: بمعنى أنجد.
(٣) تدويمه: دورانه وتحويمه انظر الديوان ص ٦٦١.

أما أنا فقد راعنى إخفاق مسعاى حين رأيته يدوم فى الفضاء آمناً مما كنت أعددته له.

خصائص شعر الطرد عند أبى نواس

بعد أن استعرضنا أبرز طرديات أبى نواس صار فى وسعنا الوقوف على خصائص هذا الفن عنده ويحسن بنا أن نقف أولاً على طريقته فى بناء الطردية، ثم تتبع ذلك بتبيان الخصائص المعنوية واللفظية والتصويرية والموسيقية لهذه الطرديات.

خط أبو نواس لطردياته خطوطها العريضة، والتزمها التزاماً كبيراً فى جل ما قاله فى هذا الفن، وكان أبرز هذه الخطوط أن الشاعر التزم فى طردياته جميعها بحر الرجز ولم يعدل عنه إلى غيره إلا مرتين اثنتين حيث استبدل فى كلتيهما البحر السريع الذى يقاربه فى وزنه ويشاكله فى رشاقة موسيقاه[1].

ويلاحظ أيضاً فى طردياته التزام الروى الواحد ولم يعدل عنها أبداً حتى أصبحت سمة من سماته وميزة تمتاز بها طردياته. وقد قسم أبو نواس طرديته فى الكثير الغالب على ثلاثة أقسام: هى المقدمة، والمتن، والخاتمة.

أما المقدمة فيتحدث فيها – غالباً – عن التبكير إلى الصيد حيث لا تزال الطيور فى وكناتها والوحوش فى مرابضها، ويصف الليل الذى ما يرح يلف الكون ببروده السود ويصور تنفس الصبح وانبلاج ضوئه الخافت من خلال سدف الظلام. وأكثر مقدماته تفتتح بكلمة: «قد أغتدى» فيقول: «قد

(١) الديوان ص ٦٣٥، ٦٦١.

أغتدى والطيرفى مثواتها» «قد أغتدى والصبح فى دجاه»[١].

ونراه كثيراً ما يفتتح مقدماته بكلمة «أنعت» فيقول: «أنعت كلباً ليس بالمسبوق» «أنعت كلباً جال فى رباطه» «أنعت ديكاً من ديوك الهند»[٢] وأما متن الطردية فهو يخصصه لوصف الحيوان الصائد - جارحاً كان أو ضارياً - وصفاً وافياً، أما الحيوان المصيد وعملية الصيد فقليلاً ما يصفهما الوصف الوافى.

وأما الخاتمة فهو يذكر فيها حصاد صيده، ويعقب على ذلك بتحميده أو حكمه مناسبة للمقام، أو إطراء للحيوان الصائد، أو اعتبار بما حدث وذلك كقوله: «يا لك من ذى حيلة كسوب» تبارك الله الذى هداه»[٣] أو غير ذلك مما يشعر القارئ بانتهاء الطردية ولا يقطع حبلها به قطعاً. غير أن الشاعر لم يلتزم هذا التقسيم دائماً وإنما عدل عنه أحياناً فهناك طرديات قصرها على وصف الحيوان الصائد مع خاتمة ذكر فيها ثمرات صيده، وأخرى قصرها على وصف عملية الصيد نفسها مع خاتمة خفيفة.

ومن هنا نستطيع ان نقول أن بناء الطردية فى أحسن أحواله عند أبى نواس لم يبلغ مرتبة الكمال التى كان يرجى له أن يبلغها بسبب ما ساد عصره من ثقافة ومنطق وموضوعية، ذلك لأننا كما نعلم أن عملية الصيد لها عناصر ثابتة هى: الزمان، والمكان، والحيوان الصائد، والحيوان المصيد، والإنسان الذى يوجه الصيد ثم ثمرات الصيد ونتائجه.

والطردية الكاملة هى تلك التى تلم بهذه العناصر كلها إلماماً مناسباً

(١) الديوان ص ٦٢٨، ٦٤٨.
(٢) الديوان ص ٦٢٥، ٦٤٢، ٦٥٩.
(٣) الديوان ص ٦٥٩، ٦٥٤.

فتعطى كل عنصر حقه بحيث لا يجور على غيره ولا يجور عليه غيره، غير أن أبا نواس لم يوفق فى أية من طردياته إلى إقامة بنائها على هذا النمط الذى ذكرناه. حقاً إنه وصف زمان الصيد - وهو لحظات البكور - وصفاً رائعاً، ونعت الحيوان الصائد نعتاً بلغ فيه الغاية وألم أحياناً بعملية الصيد إلماماً مناسباً، وتحدث عن نتائجه فى الكثير الغالب لكنه أهمل مكان الصيد والإنسان الصائد فالمكان الذى يقع فيه الصيد جدير بأن ينعت ليوضع القارئ فى جو الطراد وعلى أرضه، والإنسان الذى يوجه عملية القنص حرى بأن يوصف، فهو حين يطلق جوارحه وضواريه تتولد فى نفسه شتى الانفعالات وتتحرك فيها مختلف العواطف، إنه يأمل الدرك، ويخشى الفوت، ويرجو النجح ويخاف الإخفاق، فإذا ادرك ونجح فاضت نفسه بالسرور والغبطة، وإذا أخفق استشعر الغم والأسى.

هذه الحالات النفسية كلها كانت جديرة بأن تصور حتى تبلغ الطردية غايتها فى كمال البناء.

ومع ذلك فلأبى نواس طرديات خطت أشواطاً فى طريق الكمال نعت فيها زمان الصيد، والجارح والصائد، والطير المصيد والعراك الذى دار بينهما وما أسفر عنه الصيد، وذلك كما فى أرجوزته النونية التى قالها فى البازى وصيده الكراكى[1].

الخصائص المعنوية لطرديات أبى نواس

لعل أبرز ما يميز طرديات أبى نواس من الناحية المعنوية أنها حفلت بطائفة كبيرة من المعلومات المتصلة بالحيوانات الصائدة وبخاصة الكلاب

(١) الديوان ص ٦٧٠.

حتى إن هذه المعلومات لو نثرت لاجتمع منها كتاب البيزرة لا يقل عن غيره مما ألف فى هذا الباب فالشاعر – كما رأينا عند استعراض طردياته – وصف الكلاب والبزاة وغيرهما من الضوارى والجوارح وصفاً تناول كل عضو من أعضائها، واستوفى كل صفة من صفاتها وكشف عن أمارات فراهتها وعلامات نجابتها وألم ببعض آداب معاملتها وطرق تربيتها ووصف شدة حرصها على الصيد، وحدة جريها إليه وما إلى ذلك مما رأيناه، ومن هنا نستطيع أن نقول إنه يجب على دارس هذه الطرديات أن يقف قبل قراءتها على كتاب من كتب البيزرة، حتى يتمكن من فهمها كاملاً وتذوقها تذوقاً صحيحاً وإلا فمن أين للقارئ أن يدرك هذه الصورة التى أكثر الشاعر من عرضها فى طردياته ووصف فيها شدة عدو الكلاب حيث قال:

قد خدشت رجلاه فى آباطه وخرم الأذنين بانتشاطه[1]

وقال أيضاً:

حتى إذا أخصف فى إحضاره خرق أذنيه شبا أظفاره[2]

إذا لم يكن عارفاً أن طول أذنى الكلب ورقتها من أمارات فراهته وعلامات نجابته وأن من شأنه إذا اشتد عدوه أن يقترب جسده من الأرض، وعند ذلك كثيراً ما يطأ ببرائنه على أذنيه المتدليتين فيدميهما بأظفاره.

ثم إن هذه الطرديات توقف القارئ على مدى تهالك الخلفاء والأمراء والأشراف وذوى اليسار على الصيد ومبلغ استهتارهم به حتى جعلوا من كلابه بخاصة وحيواناته الأخرى بعامة شخصيات مرموقة – لها أسماؤها المعروفة، وأنسابها المحفوظة يجللونها ببرودهم إذا بردت ويتخذون لها البيوت

(١) الديوان ص ٦٢٦.
(٢) الديوان ص ٦٣٠.

لتقيها من عيون المقتحمين ويوظفون لها الساسة ليقوموا عليها آناء الليل وأطراف النهار.

ثم إن هناك معنى آخر توحى به هذه الطرديات هو أن الصيد أصبح غاية تقصد لذاتها بعد أن كان وسيلة للرزق، والدليل على ذلك تخصيص كثير من طرديات الشاعر لوصف الحيوان الصائد وحده، وإغفال ما عداه من الحيوان المصيد وطريقة الصيد وثمرته[١].

ومن الملاحظ أيضاً فى طرديات أبى نواس عدم ظهور آثار الإسلام فيها إلا فى حالات نادرة وبصورة غير واضحة فكما نعلم أن التسمية عند إطلاق الجارح شرط فى حل أكل الطريدة وأن من شأن الصائدين أن يذكروا اسم الله على صيدهم، غير أن أبا نواس لم يلتفت إلى ذلك الأمر إلا مرة واحدة على وجه لا يوحى بالقصد، وذلك عندما ذكر ولع أحد الصائدين بكلبه وأتبع ذلك بوصف الكلب وراء طريدته حيث قال:

يبيع باسم الله فى أشلائه   تكبيره والحمد من دعائه[٢]

ولعل السبب فى إهمال هذا الجانب زمن أبى نواس هو أن الصيد لم يكن كما قلنا غايته الإفادة من أكل الطرائد حتى يتوخى حلها وتتوقى حرمتها، وإنما كان الهدف منه هو الاستمتاع بالطرد نفسه مما جعله غاية تقصد لذاتها لا لفوائدها وثمراتها.

ولعل أهل ميزة لهذه الطرديات هو ما اتسمت به من وحدة الموضوع والتسلسل المنطقى بين أجزائها، فأبو نواس قد محض أراجيزه هذه للصيد ولم

---

(١) الديوان ص ٦٣٣، ٦٣٤.
(٢) الديوان ص ٦٣٩.

يشركه بشئ آخر معه فأصبح قارئ الشعر العربى يتناول أرجوزة ذات عنوان محدد الدلالة، فإذا قرأها وجد أن كل ما جاء فيها منبثق عن العنوان الذى صدرت به، ثم ألفى نفسه ينتقل بين أجزائها فى حركة منطقية تفضى فيها المقدمات إلى النتائج وتنبثق فيها النتائج عن المقدمات، وهذه مزية عظيمة وكبيرة حققها أبو نواس للشعر العربى عن طريق طردياته.

كما ان المعانى فى طرديات أبى نواس كثيراً ما تتسم بالطرافة والعمق ولا غرو فهو الذى «جمع له الكلام فاختار أحسنه، وأن المعانى حبست عليه فأخذ منها حاجته وفض باقيها على الناس»[١].

والدليل على ذلك تأمله وهو يصف تعلق الصائد بجارحه حيث يقول:

وقانص أحفى به من أمه لو يستطيع فاته بلحمه
يقيه من برد الندى بكمه توقيه الأم ابنها فى ضمه
لما يلذ أنفها من شمه[٢]

فهل رأيت تعبيراً عن الحنو أبلغ من قوله: «لو يستطيع قاته بلحمه»؟ وهل رأيت صور للعطف والحنو أروع من صورة الأم وهى تضم ابنها إلى صدرها وتملأ خياشيمها من شميمه فتبعثها تلك الغبطة الغامرة على المبالغة فى توقيته ودفع هبوب الريح عنه.

ولكننا نجد بجانب هذه المعانى الطريقة والعميقة معانى أخرى يجتويها العقل، وذلك إما بسبب المبالغات التى يمجها الذوق من مثل قوله:

أنعت ديكاً من ديوك الهند أشجع من عادى عرين الأسد

(١) مختار الأغانى ج ٣ ص ٣٩.
(٢) الديوان ص ٦٦٩.

﴿٨٥٢﴾

له سـقاع كـدوى الرعـد[١]

فهو يصف شجاعة الديك الهندى التى فاقت شجاعة الأسود وصوته الذى يحكى قصف الرعد.

وإما بسبب انسياقه وراء ما خلفه الرعد من أساطير ينكرها المنطق وذلك حين صور الشياطين تدعو بالويل والثبور على الأرانب متأثراً بما كان يزعمه عرب الجاهلية من أن الجن تهرب من الأرانب لانها تحيض ولا تغتسل، وأنها لهذا السبب لم يتخذها مطايا لها فصارت من مطايا الغيلان، وفى ذلك تقول:

إذا الشـــياطين رأت «زنبـــورا» قـــد قلـــدر الحلقـــة والســـيورا[٢]

دعـت لخـزان الفلا بثورا[٣]

الخصائص اللفظية لطرديات أبى نواس

إنك عندما تقرأ طرديات أبى نواس تجد طائفة من طردياته قالها على الطبع متأثراً فيها بذوق عصره مراعياً فيها قراءة شعره، وهى طرديات مأنوسة اللفظ مألوفة القول لا يستعمل فيها من القريب إلا ما دعت إليه الحاجة واقتضته طبيعة الموضوع من ذلك قوله فى طردية رأيناها من قبل:

أنعـــت كلبـــاً أهلـــه مـــن كـــده قـــد ســـعدت جدودهـــم بجـــده[٤]

ثم تقرأ طائفة أخرى قالها على سبيل التحدى فحشد فيها القريب حشداً وقصد إليه عمداً مما يجعل القارئ يهم بأن ينكر ما يسمع لكثرة ما يعترضه من الغريب الذى يحوجه إلى التنقيب فى المعاجم والتنقير عن معانى الكلمات.

---

(١) السقاع: الصوت انظر الديوان ص ٦٥٩.
(٢) زنبور: اسم كلب.
(٣) خزان: جمع مفرده خزر وهو ذكر الأرنب انظر الديوان ص ٦٣٣.
(٤) الديوان ص ٦٢٤.

فقد كان يريد أن يرمى بهذه الطائفة من طردياتـه وجوه الذين جعلوا يضعفونه ويستلينون شعره وأن يكاثرهم فى الغريب الذى كانوا ينفقون عمرهم فى روايته، وأن يتعالم عليهم بما يظنون أنه يجهله وأن يبين لهم إنه ليس أقل معرفة بغريب كلام العرب من الشعراء السابقين الذين يدينون لهم بالولاء والطاعة وهم مطمئنون، ومن ذلك قوله فى طردية رأيناها من قبل(١):

أنعت كلباً جال فى رباطه جول مصاب فر من أسعاطه
يقمم القائد فى حطاطه وقده البيداء فى اعتباطه(٢)

ثم تقرأ طائفة أخرى فتجد أن الشاعر لم يغرب فحسب وإنما تعاجم أيضاً فحشد فيها من الألفاظ الفارسية، المعربة وغير المعربة أكثر مما يمكن أن تحتمله أرجوزة عربية إظهاراً لنسبه وإشادة ببنى قومه وتنويها بهم.

ومن ذلك قوله:

قد أغتدى بزرق جراز محض رقيق الزف والطراز
دبق من نعمان شهر داز تصيدنا رزقاً ود ستخاز
زين يد الحامل والقفاز(٣)

وقوله:

قد أغتدى قبل الصباح الأبلج بسهر داز اللون أو إسبهرج
أبرش أوتار الجناح الأخرج بين حوافيه إلى الدهبرج(٤)

(فالدستخاز) معناه: الذى إذا رأى الصيد طارعن اليد، و«الدهبرج» الريشات العشر و«الديزج» بمعنى لون الخيل و(السهر داز والاسبهرج) لونان

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٢٤١.
(٢) الديوان ص ٦٢٥.
(٣) الديوان ص ٦٤٨.
(٤) الديوان ص ٦٦٤.

وكلها ألفاظ فارسية أوردها الشاعر تعاجماً، ولو شاء أن يستبدل بها ألفاظاً عربية ماعز عليه ذلك.

الخصائص التصويرية لطرديات أبى نواس

تعتمد الطرديات أكثر ما تعتمد على الوصف فهى فى جملتها وصف للحيوان الصائد والمصيد وما يدور بينهما من طراد.

وأبو نواس فى طردياته مصور بارع يملك ريشة عز أن تجد لها نظيراً فى شمول صورها، ودقة خطوطها وبراعة ألوانها، وحسن عرضها. وقد اعتمد أبو نواس فى إبراز صوره على الاداء المباشر الذى يقوم على الإفادة من المعانى الحقيقية للألفاظ واستخراج أقصى ما تملكه من قدرة على التعبير وعدم اللجوء إلى المجاز على الرغم مما يزخر به من طاقات تزيد فى قدرة اللغة على التصوير والوصف.

ولعل السبب فى اعتماده على الأداء المباشر هو تمكنه من نواحى الكلم تمكناً جعل الصور تنقاد له كيفما شاء وتواتيه أنى أراد، فكم من صورة جلاها الشاعر بوساطة المعانى المباشرة للألفاظ من غير ان يلجأ إلى أية وسيلة من وسائل البيان.

فمن صوره التى اعتمد فيها الأسلوب المباشر وحده قوله من طردية كنا ألممنا بها من قبل:

أنعت كلباً ليس بالمسبوق مطهما يجرى على العروق[1]

كما اعتمد أبو نواس فى إبراز صوره على التشبيه وهو يمتلك فى هذا الباب قدره بارعة مكنته من تجسيد المعقولات وتوضيح المحسوسات وتزيين

(١) الديوان ص ٦٢٤.

﴿٨٥٥﴾

وكلها ألفاظ فارسية أوردها الشاعر تعاجماً، ولو شاء أن يستبدل بها ألفاظاً عربية ماعز عليه ذلك.

الخصائص التصويرية لطرديات أبى نواس

تعتمد الطرديات أكثر ما تعتمد على الوصف فهى فى جملتها وصف للحيوان الصائد والمصيد وما يدور بينهما من طراد.

وأبو نواس فى طردياته مصور بارع يملك ريشة عز أن تجد لها نظيراً فى شمول صورها، ودقة خطوطها وبراعة ألوانها، وحسن عرضها. وقد اعتمد أبو نواس فى إبراز صوره على الاداء المباشر الذى يقوم على الإفادة من المعانى الحقيقية للألفاظ واستخراج أقصى ما تملكه من قدرة على التعبير وعدم اللجوء إلى المجاز على الرغم مما يزخر به من طاقات تزيد فى قدرة اللغة على التصوير والوصف.

ولعل السبب فى اعتماده على الأداء المباشر هو تمكنه من نواحى الكلم تمكناً جعل الصور تنقاد له كيفما شاء وتواتيه أنى أراد، فكم من صورة جلاها الشاعر بوساطة المعانى المباشرة للألفاظ من غير ان يلجأ إلى أية وسيلة من وسائل البيان.

فمن صوره التى اعتمد فيها الأسلوب المباشر وحده قوله من طردية كنا ألممنا بها من قبل:

أنعت كلباً ليس بالمسبوق مطهما يجرى على العروق[1]

كما اعتمد أبو نواس فى إبراز صوره على التشبيه وهو يمتلك فى هذا الباب قدرة بارعة مكنته من تجسيد المعقولات وتوضيح المحسوسات وتزيين

(١) الديوان ص ٦٢٤.

الصور حتى إن القارئ ليكاد يلمس موصوفاته بيديه ويراها يعينيه، وقد أدرك القدماء قدرته الفائقة فى هذا الباب فقالوا عنه: «إنه متى استعمل أداة التشبيه فقال: كأنه أو كأنه صور لك الشئ ومثله أمامك كأنك تراه»(١).

فتشبيهاته أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى، وهى كلها جميلة رائعة ازدانت بها مختار القدماء من أمثال ابن أبى عون فى كتابه التشبيهات، وأبى هلال العسكرى فى كتابه ديوان المعانى، وابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء فمما اختاروه من تشبيهاته قوله من طردية كنا ألممنا بها من قبل وصف فيها حدة أسنان الكلب، ودقة حسه، وشدة عدوه.

كأن لحييه لدى افتراره شك مسامير على طواره(٢)
سمع إذا استروح لم يماره إلا بأن يطلق من عذاره(٣)
فانصاع كالكوكب فى انحداره لفت المشير موهنا بناره(٤)

كما اعتمد أبو نواس فى إبراز صوره على الكناية وكنايات أبى نواس تتسم بلطف الإشارة ووضوح الدلالة وصحة النقلة من اللازم إلى الملزوم. وكناياته كثيرة ولكنها لا تبلغ مرتبة تشبيهاته كماً ولا كيفاً وإن كانت لا تقل عنها كثيراً فى الطرافة والجمال فمن ذلك قوله من طردية الممنا بها من قبل قال فيها مكنياً عن التبكير:

قد أغتدى والطير فى مثواتها لم تعرب الأفواه عن لغاتها(٥)

كما اعتمد أبو نواس فى إبراز صوره على الاستعارة، غير أن

(١) مختار الأغانى ج ٣ ص ٢٩٧.
(٢) طواره: نواحيه.
(٣) السمع: ولد الذئب من الضبع وهو أشد ما يكون خبثاً والمعنى: أنه دقيق الحس فإذا شم الطريدة فلا تماره فى دقة حسه وصدق شمه وأطلقه عليها.
(٤) ديوان المعانى جـ ٢ ص ١٣٣.
(٥) الديوان ص ٦٢٨.

اعتماده عليها كان قليلاً نسبياً، فكم من طردية حفلت بالصور وهى خلو من الاستعارات غير أن هذا القليل منها لا يقل جودة وجمالاً عن كناياته، فمن ذلك على سبيل المثال استعارته الشرب لإذهاب قدره الطريدة فى قوله عن الكلب:

تلقى الظباء عنتاً من طرده يشرب كأس شدها فى شده[1]

ومن هنا نستطيع أن نقول إنه من خلال الحقيقة المباشرة، والتشبيه الدقيق البليغ، والكناية الموحية المعبرة، والاستعارة القليلة النادرة، أبرز أبو نواس صورة فى طردياته وجلى موصوفاته.

الخصائص الموسيقية لطرديات أبى نواس

من يقرأ طرديات أبى نواس ترعه تلك الموسيقى التى تهزج من خلال سطورها هزجاً يطرب النفس ويمتع الحس ويعلو صوت القارئ بالإنشاد ويستحثه على الاستزادة منه، لا فرق فى ذلك بين الطرديات التى اتسمت بسهولة الألفاظ وإلفها والتى قالها بطبعه وبين تلك التى حفلت بالقريب وازدحمت به والتى قالها على سبيل التحدى.

وتتمثل هذه الموسيقى فى بحر الرجز الذى اتخذه الشاعر وزناً لطردياته ولم يعدل عنه كما قلنا إلا مرتين اثنتين حيث استعمل بحراً يقاربه فى وزنه ويشاكله فى موسيقاه وهو بحر السريع.

وبحر الرجز ذو تفعيلات ثلاث متماثلات متتابعات متلاحقات تحمل إلى أذن القارئ نغماً موسيقياً متكرراً يهز الأذن هزاً مدهشاً، ويحرك النفس حركة قوية، ويصور الجرى والطراد أصدق تصويره وأجمله كما تتمثل هذه

(١) الديوان ص ٦٢٤ وكذا العصر العباسى الأول شوقى ضيف ص ٢٣٠ وكذا المرشد إلى فهم اشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب ج ١ ص ٢٣٨.

الموسيقى فى الروى المزدوج الذى التزم به الشاعر فى سائر أراجيزه وازدواج الروى يوفر للقارئ طاقة موسيقية فوق طاقة البحر؛ ذلك بأن من يريدان ينشد هذه الأراجيز ذات الروى المزدوج لا يكاد ينتهى من شطر صغير يقف فيه على حرف الروى ويقطع عنده الصوت حتى يفضى فى نهاية الشطر التالى إلى حرف آخر مماثل لسابقة فيقف عنده تلك الوقفة أيضاً، وهكذا.

كما تتمثل هذه الموسيقى فى تلك الألفاظ التى حملها الشاعر فوق معانيها اللغوية إيحاء موسيقياً ملائماً مما جعل القارئ يتلقى المعنى من مصدرين: أحدهما المدلول الوضعى للكلمة وثانيهما دلالتها الموسيقية على ذلك المعنى.

وتذكر هذه الأبيات على سبيل المثال لتبين ما حفلت به من كلمات تتلظى بموسيقى حادة ملتهبة آثارها حرف الظاء المشدد المطلق الآخر بالألف لنؤيد ما نقول:

أعددت كلباً للطراد فظا إذا غدا من نهم تلظى
وجاذب المقود واستلظا كأن شيطاناً له ألظا
يكظ أسراب الظباء كظا حتى تراها فرقاً تشظى[1]

إن من يقرأ هذه الأبيات يدرك معنى قوله «يكظ أسراب الظباء كظا» حتى ولو لم يكن واقفاً على معنى (الكظ) فى اللغة، ويرى بعينيه تمزق جماعات الظباء خلال قوله «تشظى» قبل أن يستنجد بالمعجم لإدراك مدلول التشظى.

(١) الديوان ص ٦٢٤.

﴿٨٥٩﴾

المصادر والمراجع

- اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى محمد مصطفى هدارة الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- أشعار أولاد الخلفاء الصولى مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٥.
- الأغانى للأصفهانى دار الكتب بمصر.
- أنس الملا المنكلى باريس ١٨٨٠.
- البيزرة أبو عبد الله الحسن بن الحسين. المجمع العلمى العربى بدمشق ١٣٧٢.
- تاريخ الأدب العربى بروكلمان دار المعارف بمصر ١٩٥٩م.
- تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى شوقى ضيف الطبعة الثامنة عشرة دار المعارف.
- تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الأول شوقى ضيف دار المعارف الطبعة الثامنة.
- تاريخ الأمم والملوك الطبرى المكتبة التجارية بمصر ١٩٣٩م.
- تاريخ بغداد الخطيب البغدادى مكتبة الخانجى بمصر ١٣٤٩.
- التشبيهات ابن أبى عون مخطوطة فى دار الكتب بمصر.
- التشبيهات ابن أبى عون مطبعة كمبردج بانكلترا ١٣٦٩.
- الجمهرة فى علوم البيزرة الأسدى مخطوطة فى مكتبة أيا صوفيا.
- الحيوان الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون الطبعة الثالثة ١٣٨٨ - ١٩٦٩م.
- خزانة الأدب البغدادى دار الكاتب العربى بمصر ١٣٨٧.

﴿٨٦٠﴾

- ديوان أبى نواس تحقيق الغزالى مطبعة مصر بالقاهرة.
- ديوان المعانى العسكرى مكتبة القدسى بمصر ١٣٥٤.
- زهر الآداب الحصرى دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٢٧٢.
- سمط اللآلئ البكرى لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٥٤.
- شذرات الذهب العماد الأصفهانى مكتبة القدسى بمصر ١٣٥٠.
- الشعر والشعراء ابن قتيبة دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٦٦.
- صبح الأعشى القلقشندى دار الكتب بمصر ١٩٢٢م.
- الصحاح الجوهرى دار الكتب العربى بمصر ١٣٧٧.
- طبقات الشعراء ابن المعتز دار المعارف بمصر ١٣٧٥.
- عقد الجمان مخطوطة بدار الكتب برقم ١٥٨٤.
- فى الأدب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه محمد صالح الشنطى الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م دار الاندلس للنشر والتوزيع - حائل.
- القانون فى علم البيزرة مخطوطة فى دار الكتب برقم فروسية تيمور.
- الكامل فى التاريخ ابن الأثير.
- لسان العرب ابن منظور المطبعة الأميرية ببولاق ق ١٣٠٠.
- المؤتلف والمختلف الآمدى دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٨١.
- مختار الأغانى ابن منظور الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٥.
- مختارات البارودى محمود سامى البارودى مطبعة الجريدة بمصر ١٣٣٩.
- المخصص ابن سيدة المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٨.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب الطبعة الأولى

﴿٨٦١﴾

١٩٥٥ دار الفكر.

- مروج الذهب المسعودى دار الرجاء ببغداد ١٩٣٨م.
- المصايد والمطارد كشاجم دار اليقظة ببغداد ١٩٥٤م.
- المعانى الكبير ابن قتيبة حيدر آباد الركن بالهند ١٣٦٨.
- معاهد التنصيص العباسى المكتبة التجارية بمصر.
- معجم البلدان ياقوت الحموى.
- معجم الشعراء المرزبانى دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٩.
- معجم القبائل العربية رضا كحالة.
- منتهى الطلب من أشعار العرب محمد بن مبارك بن ميمون.
- الموشح المرزبانى دار نهضة مصر ١٩٦٥م.

أ.د/ محمد سعد فشوان